في البناء الدعوي

تأليف

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢ م

ح مجلة البيان١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصويان، أحمد عبد الرحمن

في البناء الدعوي. ـ الرياض

١٧٧ ص؛ ١٧× ٢٤

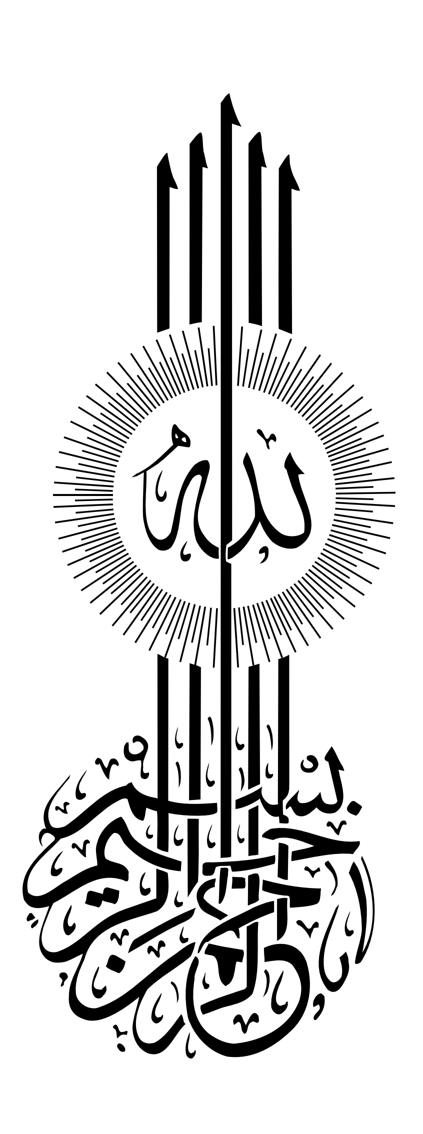
ردمك: ٣ـ ٠ ـ ٩٣٦٥ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الدعوة الإسلامية . أ ـ العنوان

ديوي ٢١٣ ٢٢/ ٤٢٧٧

رقم الإيداع ٤٢٧٧ / ٢٢

ردمك ٣ـ ٠ ـ ٩٣٦٥ ـ ٩٩٦٠


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فأصل هذا الكتاب مقالات نشر أكثرها في مجلة (البيان)، وبعضها في مجلة (الصراط المستقيم) الصادرة في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك في أوقات مختلفة، وقد قمت بمراجعتها وتنقيحها وتعديلها لتناسب النشر في هذا الكتاب الذي سميته: في البناء الدعوي.

ولا يخفى على القارئ اللبيب أنَّ المقالة الصحفية تختلف تماماً عن البحث العلمي من حيث التأصيل والتحقيق، فأرجو أن يُغفر الزلل ويُلتمس العذر، وقد أشار إلى هذا الأديب الرافعي بقوله: «ولا يقتل النبوغ شيء كالعمل في هذه الصحافة بطريقتها؛ فإنَّ أساس النبوغ ما يجب كما يجب، ودأبه العمق والتغلغل في أسرار الأشياء، وإخراج الثمرة الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق. أما هي - يعني الصحافة - فأساسها ما يمكن كما يمكن، ودأبها السرعة والتصفح والإلمام وصناعة كصناعة العنوان لا غير»[١].

فإن وجدت في هذه المقالات شيئاً يستحق القراءة والاطلاع، فالحمد لله رب العالمين، وإن لم تجد شيئاً فاستغفر الله - تعالى - لي، ولا تُشغلن وقتك إلا فيما

(١) مجلة الرسالة، (٥/ ٢٤٤).

ينفعك، ومن حقي عليك أن تدلني برأيك على طريق الصواب.

اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى..

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

ص.ب: ٢٦٩٧٠

الرياض: ١١٤٩٦

لذة المناجاة

إن من أعظم أسباب الطمأنينة وسكينة القلب: الأنس بمناجاة الله ـ تعالىٰ ـ، والتلذذ بذكره والثناء عليه، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [**الرعد**: ٢٨]. إذا هدأت العيون وهجعت النفوس، واسودت ظلمة الليل، نشط لذكر الله يسكب العبرات، ويُظهر الحاجة والافتقار إلىٰ مولاه، ويعترف بعجزه وضعفه، ويلح عليه بالثناء والتسبيح والتهليل، يرفع العبد يديه بقلب مخبت منيب يسأل الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ويستعينه، ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**﴾ [**الزمر**: ٩]، ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [**السجدة**: ١٦]. إنها لذة المناجاة، لذة من أعظم لذائذ الدنيا، تعمر القلوب وتسكن لها الجوارح، ولا يجدها إلا من ذاق طعم الإيمان، وحلاوة القرآن، وبرد اليقين. وصَدَق المصطفىٰ ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»(١).

تأمَّلْ موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أنهكه السفر، يستظل بظل شجرة، ويقولها من قلبه، نفثات عابد مستجير بربه: ﴿**فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ [**القصص**: ٢٤]. تأمل أدعية النبي ﷺ ومناجاته لربه، تجد فيها أجمل التضرع والإنابة والانكسار بين يدي الله ـ تعالىٰ ـ، وتجد فيها أبلغ الالتجاء والاستعانة به ـ عز وجل ـ. يُعفِّر وجهه في التراب، ويقوم تالياً وراكعاً حتىٰ تتورم قدماه، ويُسمَع لصدره أزيز كأزيز المرجل، وتتحدَّر الدموع من عينيه الشريفتين، ويستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مائة مرة، ومع

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ـ عز وجل ـ، (١١/٢٠٨)، رقم (٦٤٠٧).

ذلك كله يقول في دعائه العبق الكريم: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي جدّي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»[١].

غاية في التضرع والسكينة والافتقار إلى الله ـ تعالى ـ، لا يغتر بعمله، أو يتبختر بفعله، بل يطأطئ رأسه إخباتاً ومهابة لربه، ويسأله الثبات والسداد، ويناجي ربه بقوله: «اللهم مُصرِّف القلوب صرِّفْ قلوبنا على طاعتك»[٢].

يخلو العبد بربه، ويرطب لسانه بالذكر وتلاوة القرآن، مخلفاً وراءه الدنيا بغربتها وهمومها، فمهما ادلهمت به الخطوب، وتكالبت عليه الفتن، وتكاثرت عليه الهموم، إلا أنه يجد في قلبه سكينة عامرة، ويقيناً راسخاً.

إن الدعاء عبادة عظيمة تتجلى فيه كريم الصلة بين العبد وخالقه، يُرى فيه العبد منكسراً بين يدي مولاه، منطرحاً على بابه، يستغيث به ويستجير، والله ـ تعالى ـ يحب العبد الملحاح، ولهذا قال النبي ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٣].

ودعوات المؤمنين الصادقة هي الطاقة الحية المعطاءة التي تبعث الروح في قلوب المؤمنين، وتدفعها إلى البذل والعطاء بصدق وإخلاص، فهي الجند الذي لا يُغلب، والسلاح الذي لا يقهر.

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت»، (١١/ ١٩٦)، رقم (٦٣٩٨، ٦٣٩٩)، ومسلم، في كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل، (٤/ ٢٠٨٧)، رقم (٢٧١٩)، واللفظ له.

(٢) أخرجه: مسلم، في كتاب القدر، باب تصريف الله ـ تعالى ـ القلوب كيف شاء، (٤/ ٢٠٤٥)، رقم (٢٦٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد، (٢/ ٤٤٢)، والترمذي، في كتاب الدعوات، باب فضل الدعاء، (٥/ ٤٥٦)، رقم (٣٣٧٣)، وابن ماجه، في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، (٢/ ١٢٥٨)، رقم (٣٨٢٧).

وقفة محاسبة

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

منزلة عظيمة من منازل المؤمنين: تسمو فيها النفس وتعلو علىٰ أهواء البشر، يقف الإنسان بين يدي ربه خالياً يتدبر آيات الله ـ عز وجل ـ بسكينة ووقار، فتلامس الآيات قلبه، وترتجف جوانحه، فيطأطئ رأسه ذلاً، ويعفر وجهه بالأرض عبودية وإخباتاً، ويناجي ربه بتضرع يطلب منه العون والغفران.. فتنحدر الدموع من بين عينيه إنابة وخضوعاً.

يقرأ الآية من كتاب الله فتعمر قلبه، وتزكيّ نفسه، وتغير من طبيعته وسلوكه، وتدفعه إلىٰ المزيد من الطاعات والإقبال علىٰ الله. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].
تحيط به الشهوات من كل مكان، وتُجْلَبُ عليه الفتن بخيلها ورجلها.. ولكنها تتساقط وتتناثر تحت قدميه، فينظر إليها باستعلاء وثبات، ويمضي لا يلتفت إليها، مرطباً لسانه بحمد الله والثناء عليه، فمناجاته لربه تُكسبه القوة والعزيمة، وقلبه أبيض كالصفا، لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض.

قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله». ذكر منهم: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من الدمع»(١). وقال: «عينان

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الأذان، باب من جلس ينتظر الصلاة، (٢/ ١٤٣)، رقم (٦٦٠)، ومسلم، في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، (٢/ ٧١٥)، رقم (١٠٣١).

لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»(١).

سبحان الله! ما أعلاها من منزلة.. وما أكرمها من صفة. حيث يتجلىٰ عمق الإيمان وصفاؤه في القلب.

إن رقة القلب وسكينته وإخباته لربه وتذلله بين يديه تعظيماً وإجلالاً، منزلة سامقة من منازل المؤمنين، تتقاصر أمامها نفوس الضعفاء، وهمم العجزة.

بهذه القلوب الحية الصادقة العامرة بنور العلم والإيمان انطلق الصحابة - رضي الله عنهم - بتيجانهم الشمّاء، يدكون الحصون، مقبلين غير مدبرين، يفتحون الآفاق، ويرفعون راية التوحيد، حتىٰ تهاوت علىٰ أيديهم عروش كسرىٰ وقيصر.

فما أحوج الأمة إلىٰ العالم الرباني الذي إذا سمع الآية تتلىٰ بين يديه وَجِلَ قلبه، وفاضت عيناه بالدمع، ووقف عند حدودها، وعضَّ عليها بالنواجذ، ولم يتجاوزها إلىٰ غيرها لِهَوىً في نفسه أو ضعف في ثباته.

ما أحوج الأمة إلىٰ الداعية الذي يجتهد في التعليم والتبليغ والتربية، حتىٰ إذا جن عليه الليل وهدأت العيون، نشط لمناجاة ربه والوقوف بين يديه رافعاً أكف الضراعة والإخبات، يسأل الله - تعالىٰ - العون والتأييد بعين باكية ونشيج عذب..!

ما أحوجنا إلىٰ الدموع المخلصة التي تترجم صدق الإيمان وثباته واستعلاءه علىٰ أهواء البشر.. فإلىٰ الله - تعالىٰ - نشكو عجزنا وضعفنا وقسوة قلوبنا، فإنه: «إذا قسا القلب قحطت العين»(٢).

قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم: لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً»(٣).

---

(١) أخرجه: الترمذي، في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس، (٤/ ١٧٥)، رقم (١٦٣٩).

(٢) من كلام ابن القيم في الفوائد، (ص ١١١).

(٣) أخرجه: البخاري، في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم»، (١١/ ٣١٩)، رقم (٦٤٨٥).

من يحمل هم التوحيد؟!

يتقطع قلب المسلم أسىً وحسرة علىٰ هذا الواقع المحزن لبعض المسلمين. . !

يذوب قلب المسلم حزناً حينما يرىٰ هؤلاء الجهلة والسذج وقد عبثت فيهم البدع والشركيات. . !

تُتلىٰ الأوراد البدعية، وتُنشد المدائح الشركية، وتدور الرؤوس طرباً وهياماً بدفوف ليالي الموالد المزعومة.

جماعات في إثر جماعات، وأفواج في إثر أفواج، يتقاطرون كالسيل المنهمر، يستنجدون بذلك المقبور، ويستغيثون به، يعفرون وجوههم بالتراب، ويتمرغون علىٰ أعتابه، ويتعلقون بأستاره، وتسمع الصراخ والعويل الذي لا ينقطع من الرجال والنساء: يا فلان أغثني. . يا فلان ارزقني. . !!

يرحل أحدهم الليالي ذوات العدد، ويتكبد من المشاق الشيء الكثير، حاملاً نذره ليذبحه بين يدي ذلك القبر، يلتمس القربىٰ والبركة، ويطلب العون والمدد. . !

سبحان الله! . . هكذا يكون الإسلام عند هؤلاء الضلاَّل؟! لقد سيطرت الدروشة بصورها العبثية المختلفة وألوانها الشركية المتعددة، علىٰ عقول كثير من المنتسبين إلىٰ الإسلام. . كم هو محزن ومؤلم للنفس أن تطل علينا من جديد الجاهلية بصورتها الأولىٰ!

كيف يلذ لنا طعام، أو نهنأ بشراب، ونحن نرىٰ هذه الخرافة التي تعبث بعقول السذج وقلوبهم؟!

هل يطيب لنا عيش ونحن نرىٰ هذا الضلال ينخر في قلوب العباد، ويجعلها ألعوبة بأيدي الدراويش والمخرفين ودهاقنة الفساد؟!

إن هـذه الجموع أمانة في أعناقنا، فأين العلماء.. وأين الدعاة والمصلحون في مشارق الأرض ومغاربها..؟!

ماذا قدمنا لتوضيح حقيقة هذا الدين، وشرح أصول التوحيد، وقواعد الشهادة..؟!

لقد كان همّ التوحيد هو الهمّ الأكبر الذي يحمله الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [**الأنبياء**: ٢٥]؛ ولهذا كانت وصية النبي ﷺ لمعاذ ـ رضي الله عنه ـ لما بعثه إلىٰ اليمن: البدء بالأهم فالمهم، حيث قال: «إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلىٰ أن يشهدوا أنّ لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة...» الحديث(١).

وكان رسول الله ﷺ يحمل هـذا الهمَّ حتىٰ في النزع الأخير، ويحذر أمته من الشرك، ويقول: «لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا(٢).

فما أحوجنا إلىٰ هذه الوصية والعض عليها بالنواجذ! فالتوحيد بشموله

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، (٣/ ٢٦١)، رقم (١٣٩٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلىٰ الشهادتين، (١/ ٥٠)، رقم (١٩).

(٢) أخرجه: البخاري، في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ، (٨/ ١٤٠)، رقم (٤٤٤٣). ومسلم، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور، (١/ ٣٧٧)، رقم (٥٣١).

وكماله هو المنطلق الأساس للدعوة، وهو أولىٰ الواجبات الدعوية التي يلزم الاعتناء بها .

وكم يحزن المرء حينما يرىٰ بعض الدعاة يجعلون همَّهم الأكبر هو الاشتغال بالفروع دون الأصول، أو حينما يتخبطون في متاهات جدلية وكلامية تشغلهم عن هَمِّ التوحيد .

وثمة طائفة من الغيورين علىٰ التوحيد والدعوة إليه اجتهدوا فأخطؤوا فسلكوا في ذلك مسالك ربما نفّرت بعض الناس منه، فما أجمل أن نجمع بين سلامة المنهج وإحسان الوسيلة!

القابضون على الجمر

كلما رأيته وجدت فيه روحاً جديدة، حية بالعطاء، مقبلة على الطاعات تمتلئ بالحيوية والفاعلية، يسبق فعله قوله، قدوة في البناء والتربية، إن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة.

ثم مرَّت شهور وسنين، وكنت أظن المحن سوف تهدُّه، وتُضعف من عزيمته، أو على أدنى الأحوال ستحدُّ شيئاً من فاعليته وحماسه. ولكنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يثبت أولياءه الصالحين بالقول الثابت، ويعينهم على مواجهة كل مكروه، والأعاصير لا تقتلع الجبال الراسيات، أو الأشجار الراسخات، وكما قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع: من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء»[1].

نعم، ربما تنتقص الفتن شيئاً من دنياه، وتضره في ماله أو بدنه، ولكن الدنيا كل الدنيا لا تساوي شيئاً في موازين المؤمنين. وماذا يضيرهم إن عاشوا في فقر ومسكنة، أو تضييق وعنت، ما دامت نفوسهم عزيزة، وجباههم عالية، وقلوبهم مخبتة لربها بسكينة وطمأنينة؟!

تزولُ الجبـالُ الراسياتُ وقلبُه على العهد لا يَلوي ولا يتغيـرُ

ألم تَرَ إلى ذلك الرجل من الرعيل الأول يُطعن ويفارق الدنيا، فيقول بقلب عامر بالبِشْر والأُنْس: «فزتُ وربِّ الكعبة»؟!، وليس ذلك خاصاً بعصر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ففي كل جيل من أجيال المسلمين نماذج مشرقة تشع

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، (١٠/ ١٠٣)، رقم (٥٦٤٤).

بالضياء وتورق بالخير والعطاء، وتمتد جذورها في أعماق الأرض ثباتاً ورسوخاً على الحق.

كثيرون أولئك القوم الذين يستطيعون الوصول إلى الحق، ولكن القلة القليلة منهم هي التي تستطيع الجهر به، والثبات عليه، والصبر على الأذى فيه. وهؤلاء هم القادرون على تغيير مسيرة التاريخ وتجديد واقع الأمة.

وما أجمل قول الرافعي: «رؤية الكبار شجعاناً هي وحدها التي تُخرج الصغار شجعاناً، ولا طريقة غير هذه في تربية شجاعة الأمة»[(١)].

تأملت أحوال المسلمين فوجدت عامتهم لا قيمة لهم على الإطلاق في مجال نشر الدعوة وحمل رايتها.. همومهم صغيرة، وتطلعاتهم وضيعة، لا تتمعَّر وجوههم حينما تُنتهك حرمة الدين، ولا تنقبض صدورهم حينما يُنتقص التوحيد، غاية مطلوبهم زخرف زائل من زخارف الدنيا الفانية. ورأيت الصفوة من أولئك الخُلَّص من الرجال الذين حملوا راية التوحيد فوق أعناقهم، بصدق اليقين وسلامة البصيرة، ورعوها بأموالهم وأبنائهم ونفوسهم، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. إنها منزلة شامخة دونها بقية المنازل، ومن حكمة الله ـ تعالى ـ أن جعل طريقها جدّ عسير، ولو كان الأمر سهلاً وتبعاته ميسرة، لرأيت جموعاً كثيرة تقوم به، وصدق المولى ـ جل وعلا ـ: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ [**التوبة**: ٤٢].

(١) مجلة الرسالة، العدد (٩٤)، محرم ١٣٥٤هـ.

الدعاة بين رجل ورويجل[(١)]

الأحداث في العالم الإسلامي تتلاحق، والمتغيرات السياسية تتابع، والصراع بين الإسلام والكفر ينتقل من طور إلىٰ طور، ومن دائرة إلىٰ أخرىٰ.. والمسلمون في جميع الأحوال كالأيتام علىٰ موائد اللئام!

ولقد ورثت الصحوة الإسلامية المعاصرة تركة مهترئة من الانحراف والتخلف الذي أصاب الأمة الإسلامية بعامة، نتيجة قرون متتابعة من العجز والضعف، ولن ينهض بها من هذه الكبوة جهود أفراد معدودين مهما بلغت إمكاناتهم وقدراتهم، بل هي في حاجة لكل الطاقات والجهود، يُكمل بعضها بعضاً، ويُسدّد بعضها بعضاً... والعمل الإسلامي بفضل الله ـ تعالىٰ ـ سائر بكل ثقة واطمئنان، يشق طريقه علىٰ الرغم من كثرة العراقيل والعقبات، ولكن ألم يسأل الواحد منا نفسه في يوم من الأيام: ما دوري في هذه المسيرة؟! وماذا قدّمت لخدمة هذا الدين؟!

هل يكفي أن يبقىٰ الإنسان مشاهداً، متابعاً لمسيرة الصحوة الإسلامية من بُعد، لا يتجاوز دوره التشجيع والتعاطف..؟! هل يكفي أن يكون دور الإنسان تكثير سواد الصالحين فحسب..؟! أيجوز أن يقتصر الدور علىٰ الحوقلة والاسترجاع إذا أصاب الدعوة ما أصابها؟!

لا شك بأن هذه سلبية مفرطة، أقعدت كثيراً من الناس عن الإنتاج

(١) قال رجل للعباس بن محمد: «إني أتيتك في حاجة صغيرة، قال: اطلب لها رجلاً صغيراً»، عيون الأخبار، (٣/ ١٥٣). وقيل لرجل: لنا حويجة، فقال: «اطلبوا لها رجيلاً!»، صيد الخاطر، (ص ٢٥١).

والعطاء، وإننا نملك طاقات هائلة بحمد الله - تعالىٰ - ولكنها طاقات كامنة خاملة، لم تُسخر التسخير الأمثل لخدمة الأمة، ولقد كُبِّلت كثير من هذه الطاقات بآسار من العجز والضعف، حتىٰ أصبحنا نرىٰ جموعاً غفيرة من الصالحين، ولكن مع الأسف الشديد حالهم كما وصفهم الشاعر:

يُثقلون الأرض من كثرتهم ثم لا يُغنون في أمر جلل

ومثله قول الشاعر:

وبعضُ الرجال نخلةٌ لا جنى لها ولا ظل إلا أن تُعَدَّ من النخلِ

إن الثروة الحقيقية التي تملكها الأمة ليست في الأموال أو الأجهزة والمعدات ونحوها، وإنما هي في الإنسان المؤمن الجاد الذي يشعر بالمسؤولية وعظم الأمانة.

إنَّ الثروة الحقيقية في تلك النفوس الحية المتقدة النابضة بروح العطاء والبذل، وما أروع تلك الصورة التي جاء وصفها في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير علىٰ متنه، كلما سمع هَيْعَةَ أو فَزْعة طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانه»[1].

فهو رجل حي نَذَر نفسه لله - تعالىٰ -، قد هيأها للانطلاق في سبيله، لا تحده الحدود، ولا تعوقه العوائق. وتأمل قوله ﷺ: «يطير علىٰ متنه»، وقوله: «طار عليه»، فهما جملتان تدلان علىٰ سرعة المبادرة، وحيوية الحركة.

إننا في مرحلة تقتضي أن يُفكر الإنسان كيف يستطيع أن ينتج، بل كيف ينتج بأكثر من طاقته.. ! ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا وُجدت الهمّة العالية والعزيمة

---

(١) أخرجه: مسلم، في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، (٣/ ١٥٠٣)، رقم (١٨٨٩).
والهيعة: الصوت عند حضور العدو، والفزعة: النهوض إلىٰ العدو.

الصادقة التي تتطلع إلىٰ أفق عال وقمّة سامقة من العطاء والإبداع، ولا ترضىٰ بالقليل من العمل.

فكُنْ رجلاً رِجْلُه في الثرى وهامـةُ همَّتهِ فـي الثريـا

قال الإمام ابن القيم: «النفوس الشريفة لا ترضىٰ من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب علىٰ الأقذار»(١).

وقال الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «ينبغي للعاقل أن ينتهي إلىٰ غاية ما يمكنه، فلو كان يُتصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض. ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن. والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلىٰ غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل»(٢).

فلا يقتل الطموحات إلا استصغار الإنسان نفسه، يُكبلها بالعجز، حتىٰ يصل إلىٰ حد الشلل الذي يعوقه عن الحركة والإنتاج، وإن طاقة الإنسان تتآكل غالباً حينما يزدري الإنسان نفسه، ويشعر أنه ضعيف لا يستطيع أن ينجز عملاً أو يبدع أمراً. وفي كثير من الأحيان لا يكتشف الإنسان طاقاته ومواهبه إلا من خلال التجارب.

وإنتاج المرء غالباً يعتمد علىٰ مقدار طموحه وهمَّته، فالإنسان الطموح هو الذي يجعل أمامه هدفاً عالياً، حتىٰ لو كانت قدراته لا تؤهله لذلك الآن؛ لأنه سوف يحرص علىٰ تنمية قدراته للوصول إلىٰ هدفه، فإذا نمت القدرات فإنه لن

---

(١) الفوائد، (ص ١٩٨).

(٢) صيد الخاطر، (ص ١٥٩).

يبقى عند هدفه الأول، بل سوف تنمو طموحاته وتزداد، وما أجمل قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «العامة تقول: قيمة كل امرئ ما يُحسن، والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب» (١).

ومَنْ يتهيَّب صعودَ الجبالِ ... يعش أبد الدهر بين الحُفَر

وقال حوط بن رئاب الأسدي:

دببتَ للمجد والساعون قد بلغوا ... جَهْد النفوس وألقوا دونه الأُزُرَا

فكابَروا المجدَ حتى ملَّ أكثرهم ... وعانق المجدَ مَن أوفى ومَن صَبَرَا

لا تحسبِ المجدَ تمراً أنت آكله ... لن تبلغ المجدَ حتى تلعق الصَّبِرَا

وقال أبو القاسم الشابي:

إذا صغرت نفسُ الفتى كان شوقُه ... صغيراً فلم يَتْعَب ولم يَتَجشَّمِ

ومَن كان جبَّار المطامع لم يزل ... يلاقي من الدنيا ضراوة قَشْعَمِ

---

(١) نقله عنه ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٣). وقال ابن القيم في موضع آخر: «العامة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسنه، والخاصة تقول: قيمة المرء ما يطلبه، وخاصة الخاصة تقول: همة المرء إلى مطلوبه»، مدارج السالكين، (٣/ ١٤٧).

أخيتي .. كفى عجزاً!

المرأة المسلمة قلعة من قلاع الإسلام، وحصن من حصونه المنيعة، لها دور عظيم في صيانة الأمة وتربيتها وحمايتها من كل ألوان الفساد والرذيلة. استقامتها على الحق صيانة للمجتمع كله، وصلاحها وعفتها رعاية للأمة من الانحدار والتردي في دروب الهوى.

لذا حرص أعداء الله - تعالى - من المستغربين والعلمانيين على انتهاك هذا الحمى الكريم، واستباحة هذه البيضة العفيفة، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم لانتزاع البقية الباقية من ديانة المرأة وتقواها، وسعوا إلى اختراق إعلامي واسع النطاق يقوم على تزيين الفواحش، ونشر ثقافة الرذيلة، والمتاجرة بالأعراض، ويهدف إلى تغيير البنية الاجتماعية والفكرية للأمة المسلمة.

وذلك كله ليس بغريب على الإطلاق؛ فذلك ديدنهم وهِجِّيراهم[1]، ولكن: ألا يحق لنا أن نتساءل بكل صدق: أين دعاتنا من هذا الحِمَى الكريم؟! وأخصُّ بالذكر ها هنا نساءنا الصالحات؛ فهن أَوْلى بذلك من غيرهن.

إنَّ علينا أن نعترف بأن واقعنا الاجتماعي والدعوي أدَّى إلى إهمال جلي واضح للدعوة في أوساط النساء، فغلب على صالحاتنا - فضلاً عن عامة نسائنا - العجز والقعود، وأصبح كثير منهن يتعذرن بمعاذير واهية يُسوِّغن بها قصورهن وتفريطهن.

نعم.. أُدرك أن العوائق الدعوية التي تواجه المرأة أضخم من تلك التي

---

(١) الهجيرى والهجير، والإهجيرى: الدأب والعادة، (لسان العرب).

تواجه أخاها الرجل، ولكن أيصح أن يكـون ذلك حابساً للمرأة عن الإقدام والنهوض؟! أيصح أن تغفل المرأة الداعية وتصاب بالوهن والفتور . . ؟!

دعينا نتأمل خبر أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ حينما يحدثنا: «أن أسود ـ رجلاً أو امرأة ـ كان يقمُّ المسجد، فمات، ولم يعلم النبي ﷺ بموته، فذكره ذات يوم فقال: ما فعل ذلك الإنسان؟ قالوا: مات يا رسول الله. قال: أفلا آذنتموني؟! فقالوا: إنه كان كذا وكذا ـ قصته ـ. قال: فحقَّروا شأنه. قال: فدِلّوني علىٰ قبره. فأتىٰ قبره فصلىٰ عليه»(١).

سبحان الله . . امـرأة ـ كما جاء في بعض الروايات ـ ربما كان بعض الناس يزدريها وينظر إليها نظـرة لا مبالاة . . ولكنها عند رسول الله ﷺ عزيزة كريمة يسأل عنها ويصلي عليها.

قامت هذه المرأة بعمل ـ قد نظنه يسيراً ـ ولكنه عند الله ـ تعالىٰ ـ عمل عظيم يستحق تقدير النبي ﷺ واهتمامه.

إنها الفاعلية التي دفعت هذه المرأة لخدمة المسلمين والسعي في حاجتهم، صورة عظيمة يتجلىٰ فيها عمل هذه المرأة المستضعَفة عند الناس . . لكن قلبها العامر بالطاعة حفَّزها علىٰ البذل والعطاء دون أن تهن أو تضعف.

إنها الفاعلية التي اطمأنت بها ذوات القلوب المرهفة الحية، فقدَّمْنَ ما يَقْوَيْنَ عليه ابتغاء وجه الله ـ تعالىٰ ـ دون أن يشعرن بالاتكالية والاعتماد علىٰ الآخرين.

وكم يحزُّ في النفس أن يرىٰ المرء ذلك التمرد الأخلاقي الذي يعصف بنا من كل صوب، ثم يجد من بعض صالحاتنا عزوفاً أو انشغالاً عن تلك المسؤولية العظيمة؟!

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الصلاة، باب كنس المسجد، (١/ ٥٥٢)، رقم (٤٥٨). ومسلم بنحوه، في كتاب الجنائز، باب الصلاة علىٰ القبر، (٢/ ٦٥٩)، رقم (٩٥٦).

فيا سبحان الله ! . . لمن تتركن الميدان؟! ومن تنتظرن أن يقوم بهذا الدور؟!

ألا يكتوي قلبكِ حين ترين تلك الوحوش الكاسرة التي كشَّرت عن أنيابها الفضائية ومخالبها الصحفية، وراحت تعبث في أخواتك، وتنتهك عفتهن وكرامتهن؟!

ألا يتفطر فؤادكِ وأنت ترين التفسخ والانحلال يستشري في نسائنا، وينتشر في بيوتنا انتشار النار في الهشيم؟!

أيطيب لكِ طعام أو شراب وأنت ترين الفتاة تلو الفتاة وقد رَمَت بحجابها وراحت تركض هنا وهناك ملبية نداء تلك الأبواق الخاسئة التي مُلئت بكل ألوان الدهاء والفتنة . . ؟!

يا الله . . . !! كيف تقوى نَفْسُكِ على القعود وأنت تملكين - بفضل الله - القدرة على تحصين أخواتك من حبائل المفسدين ومكايد العابثين . . ؟!

أيرقأ لكِ دمع؟ أم هل يسكن لكِ قلب؟ آلله - تعالى - يرضى لكِ بذلك . . ؟!

أُخَيَّتي في الله:

إما أن تتقدمي أنتِ . . وإلا فإن أولئك القوم لنا بالمرصاد، وبقدر تقصيركِ يكون إقدامهم، ومن أيقنتْ بعظيم مسؤولياتها هانت عليها كل العقبات التي تواجهها . . ومَنْ صدق اللهَ صدقه.

ومَنْ رعى غنماً في أرض مسبعة   ونام عنها تولَّى رَعْيَها الأسدُ

الطاقات المهدرة

يسّر الله ـ تعالىٰ ـ لي حضور المؤتمر السنوي الذي أقامه التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية [١]، وكان عامة الحضور من الطلاب الدراسين في مرحلَتَيْ الماجستير والدكتوراه في تخصصات تجريبية وإنسانية متعددة، وسألني أحدهم: أليس من الممكن أن يستغل هذا الاجتماع المبارك ثلةٌ من المفكرين والأشياخ لرسم خطة دعوية يعتمد عليها الدعاة في أمريكا الشمالية؟

ويبدو هذا السؤال جميلاً. . لكن صدري ضاق به جداً؛ فحتىٰ متىٰ ننتظر التلقين من الآخرين. . ؟!

إلىٰ متىٰ تدار المشروعات الإسلامية بفردية. . وبقية الجموع تتحرك بآلية ساذجة لا تعي ولا تُدرِك، ولا تجيد إلا فن المحاكاة والاجترار. . ؟!

لقد ضاق صدري لأنني أرىٰ أن مسؤولية هذا الدين ليست حكراً علىٰ أحد، بل هي قضية كل مسلم في أي مكان ذهب، وفي أي ثغر عمل، كل بحسب طاقته وقدرته. وكما قال الشاعر:

وتزعم أنك جِرْمٌ صغيرٌ وفيكَ انطوى العالَمُ الأكبرُ!

ولا يعني هذا ألاَّ يستفيد الإنسان من خبرات الآخرين وعلمهم وسابقتهم؛ فهذا أمر محمود مأمور به شرعاً، فالتناصح والتعاون أصل من أصول الشرع، ولكن لا يجوز الانكفاء عليهم، والاعتماد المطلق علىٰ خبراتهم. . !

كما لا يعني أن تتحول كل الجموع إلىٰ قادة ومفكرين، ولكن لا يجوز أن تختزل الأمة كلها وتذوب في آحاد من الناس، هم وحدهم الذين يفكرون

---

(١) في سنة (١٤١٥هـ).

ويخططون ويبدعون . . !

إنَّ الإبداع والابتكار لا يأتي في يوم وليلة، ولكنه محصلة لسلسلة من الانجازات والتجارب، فالميدان وسيلة خصبة لإثراء المعارف وصقل الخبرات . وقد يخفق الإنسان المرة بعد الأخرىٰ، ولكنه سوف ينجح في النهاية، وسوف تصير الإخفاقات رصيداً تراكمياً من الخبرة ينضج مع علو الهمة وطول العزيمة .

وإن الخوف من الإخفاق، والتردد قبل الإقدام، نتيجته الحتمية هي المراوحة في المكان نفسه، بل والتراجع إلىٰ الخلف، والذي لا يخطئ هو الإنسان الميت الذي لا يتحرك . والخلفية التربوية الهزيلة لها أثر كبير في وأد طموح الإنسان، وشلّ حركته ومحاصرة عقله؛ كما أن المحاضن التربوية الناضجة لها دور كبير في بناء الإنسان، وشحذ همته، وتوسيع معارفه وآفاقه(١) .

وبعد كل هذا الحديث يسألني أحدهم ثانية : نحن طلاب أشغلتنا الأبحاث والمعامل . . ولا نملك الوقت للتفكير والتجريب . . ؟!

لقد آلمتني هذا المداخلة الباردة المخذلة، ألهذه الدرجة يتدنىٰ الهمُّ الإسلامي فيكون في هامش الهموم . . ؟!

لن تنجح دعوة إذا كان رجالها هواة يشغلون بها وقت فراغهم!

ولن تنجح دعوة إذا كانت نزوة طارئة تغدو وتروح، وتتحكم فيها التقلبات النفسية والتغيرات الاجتماعية . . !

إن الدعوة عند أبنائها المخلصين البررة هي الهمُّ الأكبر، والشغل الشاغل، وكل ما سواها يجب أن يُسخَّر لخدمتها ويَصُبَّ في قناتها .

(١) أشار عالم النفس الأمريكي (هاورد قاردنر) إلىٰ أن : (المبدعين يتميزون بالخصائص التالية :
أ ـ قضاء وقت في التأمل والتفكر .
ب ـ تقوية ما يتقنون ويحسنون .
ج ـ تحويل الإخفاق إلىٰ تجربة تعليمية مفيدة) .
انظر : مجلة المعرفة، العدد (٣٢)، ذو القعدة ١٤١٨هـ، (ص ٤٩) .

تعب السعداء

روىٰ البخاري في قصة نزول الوحي علىٰ النبي ﷺ أن ورقة بن نوفل لمّا أخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ قال: «ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: أَوَ مُخرجيَّ هم؟ قال: نعم! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي»(١).

عجيب أمر المصلحين.. يُواجَهون بكل أنواع الظلم والمحاربة والاستهزاء، ومع ذلك فهم صابرون محتسبون..!!

عجيب أمر المصلحين، يخرج المصلح منهم وحيداً فريداً يقف بمفرده أمام الأمة بمجموعها لا يضره من خذله ولا من خالفه، يتألب عليه الخاصة وينفر منه العامة، يصفونه بأقذع الصفات ويتهمونه بأبشع الأخلاق، ومع ذلك فهو رافع الرأس، عالي الهمة، صادق العزيمة..! ينظر المصلح إلىٰ الناس من حوله فيجد الانحراف والضلال والبعد عن شرع الله فيتحرك قلبه، ويهتز ضميره، ويصبح ويمسي مفكراً في هموم الأمة وأحوالها، يظل قلق النفس حائر اللب، لا يهدأ باله بنوم أو راحة، ولا تسكن نفسه بطعام أو شراب.. وكيف يقوىٰ علىٰ ذلك أو يرضىٰ به وهو يرىٰ أمته تسير إلىٰ الهاوية، وفصول الهزيمة والاستكانة تتوالىٰ تباعاً..!!

إنّ المصلح صادق مع نفسه، صادق مع الآخرين، يجهر بالحق، ويُسمِّي الأشياء بأسمائها، ويكره التدليس والخداع وتزوير الحقائق، ولا يرضىٰ بالمداهنة أو المداورة، وهذا ما لا يرضي العامة الذين ألهتهم شهواتهم وأهواؤهم عن ذكر

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب بدء الوحي، باب (٣)، (١/ ٢٣)، رقم (٣).

الله، كما لا يرضي المتنفذين الذين يستمدون وجودهم ومكانتهم من غفلة العامة وسكرتهم.

ينطلق المصلح مستعيناً بالله ـ تعالىٰ ـ يجوب الآفاق رافعاً صوته بكلمة التوحيد الخالص لا يعتريه فتور ولا خَوَر، ولا يقعده عن أمانة البلاغ رغبة ولا رهبة ولا خوف؛ لأن القلب العامر بنور الإيمان يكتسب قوة وثباتاً يستعلي بها علىٰ زخرف الدنيا وبطش الجبابرة .

إن عظمة المصلح تتجلىٰ في ثباته ورباطة جأشه وقدرته علىٰ مواجهة الناس، بدون كَلال أو ملل، فالحق يمكن أن يصل إليه الكثيرون، ولكن الصدع به والثبات عليه والصبر علىٰ الأذىٰ فيه منزلة شامخة لا يصل إليها إلا المصلحون الأفذاذ.

إن عظمة المصلح تتجلىٰ في رعايته لهموم الأمة كبيرها وصغيرها، دينيها ودنيويها، فهو يعيش للأمة يذب عن بيضتها ويحمي حماها، ولا يتعلق قلبه بشكر الناس أو حمدهم، أو ترهب نفسه من غضبهم أو ظلمهم، يقولها صادقاً: ﴿ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾.

[**هود**: ٥١].

إنّ المصلحين هم صانعو الحياة، وباعثو الأمل في الأمة، هم حرسها وقادتها وحداتها إلىٰ كل خير، في زمن عزّ فيه الأحياء، وندر فيه الصادقون.

تعب الأشقياء

تأملت حال الذين يحاربون الدعوة الإسلامية، ويصنعون العقبات لمواجهة الدعاة، فوجدتهم من أتعس الناس وأكثرهم شقاءً!

ترىٰ الواحد منهم يلهث ويلهث حتىٰ لا تظهر للدعوة كلمة أو ترتفع لها راية. يسهر ليله ويشقىٰ نهاره في الكيد والمكر لعله ينجح في وأد كلمة خير، أو يفلح في نشر رذيلة تبعد الناس عن حياض الفضيلة!

لقد رأيت آيات الله ـ تعالىٰ ـ في وصف هؤلاء القوم تتحقق في الواقع عياناً، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾ [**مريم**: ٨٣]. والتعبير بـ (الأزّ) فيه بيان لشدة المكر والكيد، فـ (الأزّ) أصله: الحركة والغليان، والتهييج والإغراء.

إن من الناس من يستغل كل إمكاناته العقلية وقدراته المالية في تزيين الباطل وتلميعه بشتىٰ ألوان الزينة والإغراء، يريد إضلال الناس وتجهيلهم وإبعادهم عن الهدىٰ؛ ومن ثم فإن وجهه يتمعر غضباً، ويزداد سواداً حينما يرىٰ كلمة الحق قد أينعت وآتت أكلها، فلا يهدأ له بال، أو يطمئن له حال، حتىٰ يفسد تلك الثمار، ويسعىٰ لاجتثاثها من جذورها، بكل تشنج واضطراب، وليس له حجة في ذلك إلا كحجة أسلافه الذين كانوا يقولون للدعاة: ﴿ **أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ٨٢]. ولكن حقيقة الأمر بينها الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [**البروج**: ٨].

مساكين هؤلاء القوم فإن الحسرة تحيط بهم من كل مكان، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ**

حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [**الأنفال**: ٣٦]. مساكين هؤلاء القوم، يظنون أنهم بكلمة عوراء، أو عصا غليظة، أو جحور مظلمة، سوف يقضون على كلمة التوحيد، وما أدركوا أنّ صاحب العقيدة الحية لا يزيده ذلك إلا ثباتاً وصلة بربه ـ عز وجل ـ، وعزيمة على المضي في هذا الطريق لا يضره من خالفه أو خذله.

مساكين هؤلاء القوم الذين اغتروا بجبروتهم وطغيانهم، وانتفشوا بغرورهم وكبريائهم، وما دروا أن الله يدافع عن الذين آمنوا؛ فقد قال الله ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: « من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب»(١).

إنّ الدعاة إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ الصادقين، يملكون يقيناً لا تهزه الجبال، وثباتاً لا تؤثر فيه المحن، وصدقاً يستعلي على الرغائب والرهائب. وصدق الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾.

[**الصف**: ٨].

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الرقاق، باب التواضع، (١١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١)، رقم: (٦٥٠٢).

سعة الأفق

من نعمة الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبد أن يرزقه سعة في الأفق، وعمقاً في النظر، فيتسع فكره، وينطلق في آفاق رحبة واسعة، ويؤتيه الله بصيرة نافذة تجعله ينفذ إلىٰ أعماق الحقائق وأبعادها، فيقدرها بقدرها، ويضعها في مواضعها.

ومما يعين الإنسان على سعة الأفق:

١ ـ حرصه علىٰ طلب العلم والجدّ فيه، وأخذه من أهله الأثبات الراسخين، والصبر علىٰ تتبع مسائله في مظانها المختلفة، وحرصه في بدء الطلب علىٰ أن يأخذ من كل فن أصوله وقواعده لكي تتكامل معارفه وتتآلف علومه. والعلم هو الركيزة الأساس التي تبني عقل الإنسان وتجعله يستقيم علىٰ الجادة؛ ألم ترَ أن الجاهل يعيش في ظلمة فلا يبصر طريقه، فإذا عرض له عارض صار يتخبط ويضطرب؟ بينما ترىٰ صاحب العلم والفهم حاذقاً فطناً يفتح الله عليه من أبواب العلوم ما يجعله قادراً علىٰ رؤية أبعاد واسعة لا يراها من هو دونه.

٢ ـ تنوع ثقافاته، وتعدد قراءاته في مختلف أنواع المعرفة العلمية؛ فالمتخصص في الدراسات الشرعية ـ مثلاً ـ لا ينحصر في هذا التخصص؛ بل تمتد عنايته واطلاعه إلىٰ الدراسات الأدبية والفكرية والإنسانية الأخرىٰ؛ فهو يتنقل في حقول العلم والفكر، ويمتص رحيق الأزهار بألوانها وأشكالها المتنوعة، وهكذا بقية المتخصصين في فروع أخرىٰ من العلم.

٣ ـ كثرة محاورته ومجالسته لأهل العلم والرأي؛ فبالحوار العلمي الجاد تتسع مدارك الإنسان، ويقف علىٰ أشياء قد لا تخطر بباله علىٰ الإطلاق. وقديماً قال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ : «إني وجدتُ لقاء الرجال تلقيحاً

لألبابهم»(١). وقال الزهري: «العلم خزائن ومفاتيحها السؤال»(٢). وقال أيوب السختياني: «إنّك لا تعرف خطأ معلمك حتىٰ تجالس غيره»(٣).

ولهذا كان السلف يحثّون طالب العلم علىٰ الرحلة والسفر لملاقاة العلماء واكتساب مختلف أنواع العلوم والمعارف، وفي هذا يقول ابن خلدون: «علىٰ كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها»(٤).

٤ ـ حرصه علىٰ التأمل والنظر والتفكر، وشحذ الذهن وتنشيطه في دراسة المباحث والمسائل. والفكر الحي المعطاء هو الفكر المتقد الذي ينبض بحيوية ونشاط، فلا يكسل ولا يعجز ولا تصيبه السآمة والملل. وكثرة التفكر تنمي المَلَكة، فـ(كثرة المزاولات تعطي الملكات، فتبقىٰ للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة)(٥). كما أنّ الفكر المنظم المدروس هو الذي يبني العقل ويجعله يستقيم علىٰ الطريق، وأما العشوائية والارتجالية في التفكير فإنها تشتت الذهن وتفرّق الهم.

أما الإنسان الذي لا يفكر، أو يفكر بطريقة راتبة أو عشوائية، فإنه بالضرورة إنسان عاجز لا يقوىٰ علىٰ إعطاء التصور الصحيح للمسائل، بل قد يقوده تفكيره أحياناً إلىٰ التخبط والاضطراب.

٥ ـ اطِّلاعه علىٰ التجارب والخبرات البشرية في القديم والحديث محاولاً قدر الطاقة اختزانها في عقله لكي يستطيع توظيفها التوظيف الأمثل إذا دعت الحاجة إلىٰ ذلك. والحكمة ضالة المؤمن أنىٰ وجدها فهو أحق بها.

---

(١) المعرفة والتاريخ، (١/ ٦١٩).
(٢) جامع بيان العلم، (١/ ٣٧٩)، رقم: (٥٣٤).
(٣) جامع بيان العلم، (١/ ٤١٨)، رقم: (٦١٣).
(٤) مقدمة ابن خلدون، (ص: ٥٤١).
(٥) مفتاح دار السعادة، (١/ ٢٨٤).

٦ ـ تحرره من التقليد الأعمىٰ بكل صوره وأشكاله؛ فهو يستفيد من أشياخه وأقرانه وأصحابه وغيرهم، ثم ينطلق بفكره الحرّ، يتلمّس مختلف السبل بعقلية ناضجة مستقلة؛ وليس كل الناس يقوىٰ علىٰ ذلك؛ فأصحاب الفكر هم المعادن الكريمة النادرة، وهم القادرون علىٰ توجيه الأمة، وأما عامة الناس فهم همج رعاع أتباع كل ناعق، وبين هؤلاء وأولئك فئام من الناس أخذوا من كل فريق بطرف.

ضيق الأفق:

من الأدواء الفكرية المنتشرة عند كثير من الناس: ضيق الأفق، والنظر إلىٰ المسائل المختلفة بسطحية مفرطة؛ فكم ينقبض صدر المرء حينما يرىٰ من بعض الناس أن القضايا المصيرية العظيمة في مسيرة الأمة تؤخذ بعين الغفلة والسذاجة وقلة الفهم والبصيرة!

ومن أبرز أسباب ضيق الأفق:

١ ـ الجهل وقلَّة البضاعة؛ فكم جرَّ الجهل علىٰ أصحابه من المهالك والمفاسد! والجهل دركات بعضها أسوأ من بعض، وكلما ازداد المرء جهلاً ازداد تهالكاً وانحرافاً، وهل رأيت جاهلاً يقوىٰ علىٰ إدراك حقائق الأشياء ومقاصدها، أو يقدر علىٰ قراءة الواقع واستشراف المستقبل؟!!

٢ ـ قلة الفهم والوعي؛ وهما أمران زائدان علىٰ مجرَّد الجهل، فرُبَّ صاحب علْم لا يفيده علمه كبيرَ فائدةٍ بسبب ضعف فهمه وعسر إدراكه؛ لأنَّه وقف عند حروف الألفاظ، ولم ينفذ إلىٰ معانيها ومراميها. والفهم بضاعة نادرة لا يؤتاها إلا أصحاب العقل الراسخ والبصر النافذ. وصاحب الفهم يفتح الله عليه من إدراك النصوص والوقائع ما لا يخطر علىٰ بال غيره. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«ربّ شخص يفهم من النص حكماً أو حكمَيْن، ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين»[١].

٣ ـ الرتابة في التفكير ورؤية المسائل، والاعتماد على المألوف المعتاد فقط، وهذا بالتأكيد يجعل الإنسان أسيراً في بيت مغلق، كما يجعله في عزلة فكرية يحبس فيها عقله، فلا يقوى على النظر والإبداع والتجديد.

٤ ـ التربية التقليدية الهزيلة التي تنتشر في كثير من المحاضن التربوية، وتشكل عقول الناس تشكيلاً يقتل معظم ملكات الإبداع والتفكير.

٥ ـ التقليد الأعمى الذي يسد منافذ التفكير، ويجعل المرء مجرد تابع لغيره، فلا يستطيع أن يبني رأيه وفكره بناءً صحياً متجرداً؛ ولهذا تجد أنَّ المقلد لشيخ أو لمذهب أو لطائفة من أكثر الناس ضيقاً في الأفق؛ وذلك لأنه لم ينظر إلا من نافذة واحدة، ولم يفكر إلا من زاوية محدودة، وتراه يتنقل بين سراديب ضيقة تنتهي به أخيراً إلى بلادة ذهنية تعصف بتفكيره وتجعله أحياناً يقتنع بالشيء ونقيضه في آن واحد..!

٦ ـ الاكتفاء بالنظر إلى ظواهر الأمور المجردة، والتعلق بقشورها القريبة، دون النفاذ إلى أعماقها، أو النظر إلى أبعادها ومقاصدها، ويؤدي ذلك إلى الاغترار بالشكل والبهرج على حساب الحقائق والمضامين؛ مما يحجب الرؤية بغمامة معتمة تطغى على البصيرة. وكم من الأشياء من حولنا نراها في مظهرها الخارجي رؤية معينة؛ ولكننا إذا تجاوزنا ذلك إلى دواخلها، وأزلنا القشرة الرقيقة التي تحيط بها تبينت لنا صورة أخرى مختلفة وبعيدة كل البعد عن الصورة الأولى.

---

(١) مفتاح دار السعادة، (١/ ٦٠).

وانظر إلىٰ صفة المنافقين في القرآن: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ فهل تكفي هذه الصفة الظاهرية لأجسامهم وأقوالهم في إعطاء تصور صحيح متكامل عن هؤلاء القوم؟! بالتأكيد لا تكفي؛ فالقرآن يوضح حقيقة هذا المظهر: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

ونظير ذلك أيضاً: الاغترار بالكم علىٰ حساب الكيف، وانظر مثلاً إلىٰ قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، ثم قارن ذلك بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ويتضح من ذلك أن معاني الأمور ومقاصدها الصحيحة تتجلىٰ في حقائقها ومعادنها الأصيلة.

وليس المقصود هنا أن الشكل الظاهري أو الكم مرفوضان كلية؛ ولكن المقصود التحذير من الاكتفاء بهما، أو الوقوف عند حدودهما فحسب.

٧ ـ النظرة الجزئية الضيقة التي تختزل المسائل الكبيرة إلىٰ إطار محدود صغير؛ مما يؤدي ـ بالتأكيد ـ إلىٰ تكوُّن تصور هزيل مبتور لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة؛ بل قد يؤدي هذا التصور إلىٰ تشويه الحقيقة بسبب نقصها وافتقارها للنظرة الشمولية المتكاملة.

٨ ـ الخلط في تقدير المصالح والمفاسد، والجهل في ترتيب الأولويات؛ مما قد يؤدي إلىٰ التعلق بالمصلحة القريبة العاجلة، وإن ترتب عليها مفاسد كبيرة في العاجل أو الآجل، أو يؤدي إلىٰ تقديم المصالح المفضولة علىٰ حساب المصالح الفاضلة.

نـورالهداية

كنت عائداً من سفر طويل، وقدَّر الله ـ تعالىٰ ـ أن يكون مكاني في مقعد الطائرة بجوار ثُلَّة من الشباب العابث اللاهي الذين تعالت ضحكاتهم، وكثرت جَلَبتهم، وامتلأ المكان بسحاب متراكم من دخان سجائرهم؛ ومن حكمة الله ـ تعالىٰ ـ أن الطائرة كانت ممتلئة تماماً بالركَّاب فلم أتمكن من تغيير المقعد.

حاولت أن أهرب من هذا المأزق بالفرار إلىٰ النوم، ولكن هيهات هيهات.. فلمَّا ضجرت من تلك الضوضاء أخرجت المصحف ورحت أقرأ ما تيسر من القرآن الكريم بصوت منخفض، وما هي إلا لحظات حتىٰ هدأ بعض هؤلاء الشباب، وراح بعضهم يقرأ جريدة كانت بيده، ومنهم من استسلم للنوم.

وفجأة قال لي أحدهم بصوت مرتفع ـ وكان بجواري تماماً ـ: يكفي، يكفي..!!

فظننت أني أثقلت عليه برفع الصوت، فاعتذرت إليه، ثم عدت للقراءة بصوت هامس لا أُسْمِعُ به إلا نفسي، فرأيته يضم رأسه بين يديه، ثم يتململ في جلسته، ويتحرك كثيراً، ثم رفع رأسه إليَّ وقال بانفعال شديد: أرجوك يكفي.. يكفي.. لا أستطيع الصبر..!!

ثم قام من مقعده، وغاب عني فترة من الزمن، ثم عاد ثانية، وسلَّم عليَّ معتذراً متأسفاً. وسكت وأنا لا أدري ما الذي يجري! ولكنه بعد قليل من الصمت التفت إليَّ وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وقال لي هامساً: ثلاث سنوات أو أكثر لم أضع فيها جبهتي علىٰ الأرض، ولم أقرأ فيها آية واحدة قط..! وها هو ذا شهر كامل قضيته في هذا السفر ما عرفت منكراً إلا ولغت

فيه، ثم رأيتك تقرأ، فاسودَّت الدنيا في وجهي، وانقبض صدري، وأحسست بالاختناق، نعم . . أحسست أنَّ كل آية تقرؤها تنزل على جسدي كالسوط . . !

فقلت في نفسي : إلى متى هذه الغفلة؟ ! وإلى أين أسير في هذا الطريق؟ !

وماذا بعد كل هذا العبث واللهو؟ !

ثم ذهبت إلى دورة المياه، أتدري لماذا؟ !

أحسست برغبة شديدة في البكاء، ولم أجد مكاناً أستتر فيه عن أعين الناس إلا ذلك المكان ! !

فكلمته كلاماً عاماً عن التوبة والإنابة والرجوع إلى الله . . ثم سكت .

لما نزلت الطائرة على أرض المطار، استوقفني وكأنه يريد أن يبتعد عن أصحابه، وسألني وعلامات الجدّ بادية على وجهه : أتظن أن الله يتوب عليَّ؟ !

فقلت له : إن كنت صادقاً في توبتك عازماً على العودة فإنَّ الله ـ تعالى ـ يغفر الذنوب جميعاً .

فقال : ولكني فعلت أشياء عظيمة . . عظيمة جداً . . ! !

فقلت له : ألم تسمع قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

[**الزمر** : ٥٣] .

فرأيته يبتسم ابتسامة السعادة، وعيناه مليئتان بالدموع، ثم ودَّعني ومضى . . !

سبحان الله العظيم . . !

إن الإنسان مهما بلغ فساده وطغيانه في المعاصي فإنَّ في قلبه بذرة من خير، إذا استطعنا الوصول إليها ثم قمنا باستنباتها ورعايتها أثمرت وأينعت بإذن الله ـ تعالىٰ ـ.

إنَّ بذرة الخير تظلُّ تصارع في نفس الإنسان وإن علتها غشاوة الهوىٰ؛ فإذا أراد الله بعبده خيراً أشرقت في قلبه أنوار الهداية، وسلكه في سبيل المهتدين. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾[**الأنعام**: ١٢٥].

من سنن التغيير الاجتماعي

من حكمة الله البالغة أنه وضع في هذا الكون سنناً ونواميس كونية جارية لا تتغير بتغير السنن وتعاقب الأجيال، ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [**فاطر**: ٤٣]، وأمر الله ـ تعالى ـ بدراسة تلك السنن والاعتبار بها، ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٣٧]، ولهذا ذكر الله ـ عز وجل ـ في كتابه العزيز قصص بعض الأمم الغابرة وقال: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ** ﴾.

[**يوسف**: ١١١].

ومن سنن الله ـ تعالى ـ الجارية في التغيير الاجتماعي:

أولاً: أن الباطل مهما انتفش وعلا سلطانه، وكثر أنصاره وجماهيره في عصر من الأعصار؛ فإن جذوره قريبة ولا يملك أيَّ مقوم من مقومات البقاء والديمومة. فكم من حضارة سادت وعظم شأنها ولكن الله ـ عز وجل ـ أهلكها بظلمها. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [**الفجر**: ٦ ـ ١٤].

وكم من طاغية طغىٰ وتجبر وأفسد، ولكن الله ـ عز وجل ـ أخذه أخذ عزيز مقتدر. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ [**القصص**: ٨١].

وفي مقابل ذلك نرىٰ أن الحق مهما ضعف سلطانه، وقلَّ أتباعه في عصر من الأعصار؛ فإن جذوره ضاربة في أعماق الأرض، ويملك ـ ولله الحمد ـ أعظم مقومات البقاء والديمومة. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم علىٰ ذلك»[1]، وقال أيضاً: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح، تصرعها مرة وتعدلها أخرىٰ حتىٰ يأتي أجله. ومثل المنافق كمثل الأَرْزة المُجْذِيَة التي لا يصيبها شيء، حتىٰ يكون انجعافها مرة واحدة»[2].

فالحق منصور ـ بإذن الله تعالىٰ ـ، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [**المجادلة**: ٢١]، وقال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾.

[**الصافات**: ١٧١ – ١٧٣].

وما أحسن قول عباس محمود العقاد: «كثيراً ما يكون الباطل أهلاً للهزيمة، ولكنه لا يجد من هو أهل للانتصار عليه»[3].

ثانياً: أن الصراع بين الحق والباطل دائم ما دامت السموات والأرض. فما دعا نبي من الأنبياء أو مصلح من المصلحين إلا كذبه قومه وآذوه وقاتلوه. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [**الفرقان**: ٣١].

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب المناقب، باب (٢٨)، (٦/ ٦٣٢)، ومسلم، في كتاب الإمارة، (٣/ ١٥٢٤)، رقم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه: البخاري، في كتاب المرضىٰ، باب ما جاء في كفارة المرض، (١٠/ ١٠٣)، رقم (٥٦٤٣)، ومسلم، في كتاب صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع، (٤/ ٢١٦٣)، رقم (٢٨١٠). و(المجذية): الثابتة القائمة.

(٣) الفصول، (ص ٢٣٩).

فالابتلاء سنة ربانية كتبها الله على عباده ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [**العنكبوت**: ١ - ٣]. وبين رسول الله ﷺ أن درجة الابتلاء تكون على قدر الإيمان فقال: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه»[1].

وقد كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على هذه الحقيقة، فها هو ذا خباب بن الأرت - رضي الله عنه - يقول لرسول الله ﷺ: (ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا)، ومع أنه طلب أمراً مشروعاً وهو الاستنصار والدعاء، إلا أن رسول الله ﷺ قعد وهو مُحمَرٌ وجهه، وقال: «كان الرجل فيمن كان قبلكم يُحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع فوق رأسه فيشق باثنين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم، وما يصده ذلك عن دينه»[2].

قال الشيخ رشيد رضا - رحمه الله -: «الإنسان يلتبس عليه أمر نفسه فلا يتجلى كمال التجلي إلا بالتجارب الكثيرة، والامتحان بالشدائد العظيمة، فالتجارب والشدائد كتمحيص الذهب يظهر به زيفه ونضاره، ثم إنها أيضاً تنفي خبثه وزغله. كذلك كان الأمر في أُحد، تميز المؤمنون الصادقون من المنافقين وتطهرت نفوس بعض الضعفاء المؤمنين من كدورتها، فصارت تبراً خالصاً،

---

(١) أخرجه: الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، (٤/ ٦٠١)، رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه، في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، (٢/ ١٣٣٤)، رقم (٤٠٢٣).
(٢) أخرجه: البخاري، في كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين، (٧/ ١٦٤)، رقم (٣٨٥٢).

وهؤلاء هم الذين خالفوا أمر النبي ﷺ وطمعوا في الغنيمة، والذين انهزموا وولوا وهم مدبرون؛ مُحِّص الجميع بتلك الشدائد، فعلموا أنَّ المسلم ما خُلق ليلهو ويلعب، ولا ليكسل ويتواكل، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات، وتبديل سنن الله في المخلوقات، بل خُلق ليكون أكثر الناس جداً في العلم، وأشدهم محافظة على النواميس والسنن»[1].

ثالثاً: أن نصر الله وتأييده لا يتنزل على الضعفاء القاعدين؛ فلا بد من بناء الأمة وتربيتها وإعداد العدة اللازمة للتمكين. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾.

[**الأنفال**: ٦٠].

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩]، إلى أن قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾.

[**التوبة**: ٤١].

ورسول الله ﷺ وهو أشرف الخلق وأكرمهم على الله لم يتنزل عليه نصر الله بسُنَّة خارقة، بل كُذِّب وأُوذي واتُهم بالسحر والجنون وشُج رأسه وكُسرت رباعيته وتألب عليه الأحزاب. ولكنه ظل صابراً محتسباً هو وأصحابه الكرام لا يضرهم من خالفهم، حتى آتاهم الله من فضله وفتح لهم البلاد ودخل الناس

(١) تفسير المنار، تفسير الآية (١٤٤) من سورة آل عمران.

في دين الله أفواجاً، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. قال ابن الجوزي: «كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب في تحصيله»[١].

قال الأستاذ سيد قطب في تفسير قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ...﴾ [آل عمران: ١٦٥]: «لقد كتب الله علىٰ نفسه النصر لأوليائه حملة رايته، وأصحاب عقيدته، ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم، وباستكمال العدة في طاقتهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم، فهذه سُنَّة الله، وسُنَّة الله لا تحابي أحداً.

فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير؛ فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن وإبطال النواميس، فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها علىٰ السنن، ويصطلحون بفطرتهم كلها علىٰ الناموس»[٢].

رابعاً: أن إمامة الشعوب وريادتها لا يصل إليها إلا من أخذها بحقها. فليست الإمامة منحة لنسب أو وراثة لنسب، بل هي قمة شريفة لا ينالها إلا أولياء الله المخلصين. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقال ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «جعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر

---

(١) صيد الخاطر، (ص ٢٦٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٥١٣).

واليقين، فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلىٰ الصبر»[١].

وقال الإمام ابن القيم: «أخبر أن إمامة الدين إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات»[٢].

فروّاد الأمم، وقادة الإصلاح والتغيير هم أصحاب القلوب القوية الثابتة، الراسخة رسوخ الجبال الرواسي، يأخذون بالعزائم، فلا تهدهم المحن ولا تعجزهم المصاعب.

خامساً: أن ما يصيب الأمة أفراداً وجماعات من هزيمة وضعف وانكسار فبما كسبت أيدي الناس. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [**الشورى**: ٣٠]. وقال: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [**آل عمران**: ١٦٥]. وقال أيضاً: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا**﴾ [**النساء**: ١٢٣]. وقال: ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [**محمد**: ٣٨].

وتغيير حال الأمة والقيام بها من كبوتها لا يكون أيضاً إلا بجهد الناس وإنجازهم. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [**الرعد**: ١١]. قال ابن الجوزي: «إن الله لا يغير ما بقوم من الكرب حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم من الذنوب، فلا يكون التغيير إلا بعد التغيير»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، (١٠/ ٣٩).

(٢) زاد المعاد، (٣/ ١٠).

(٣) انظر: أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب، (ص ٧).

وإذا رأىٰ الله صدق الناس وعزمهم، بارك فيهم وأيدهم وفتح عليهم، ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾.

[**البقرة**: ٢١٤].

سادساً: أن الأمة حينما تشتغل بدنياها وأهوائها وزخارفها، وتتخلىٰ عن شعيرة الجهاد في سبيل الله ـ تعالىٰ ـ؛ فإن الله يكتب عليها الذل والصغار والهوان، قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم»(١).

فبالجهاد ترتفع الأمة ويعلو شأنها، ويكتب الله ـ تعالىٰ ـ لها العز والتمكين، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾.

[**العنكبوت**: ٦٩].

---

(١) أخرجه: أبو داود، في كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، (٣/ ٢٧٤)، رقم (٣٤٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١١).

دراسة المستقبل.. مدخل تأصيلي

مدخل:

علم الإدارة من العلوم القديمة قدم الإنسان، أخذ أشكالاً وأنماطاً متعددة تختلف باختلاف العصور والأنشطة، وهو حصيلة تجارب وخبرات متنامية للاستفادة من الطاقات والموارد المتاحة - البشرية منها على وجه الخصوص - للوصول إلى أهداف محددة بأسرع وقت ممكن، وأقل جهد مبذول، وأقل تكلفة ممكنة.

فعلم الإدارة وسيلة من وسائل ضبط العمل وإتقانه وتوجيهه الوجهة الصحيحة، ولهذا قال الكاتب «فورست» في تعريف الإدارة: «إنها فن توجيه النشاط الإنساني».

ويعتمد الفكر الإداري لبناء أي عمل ـ من أي نوع كان ـ على العناصر التالية:

١ - التخطيط.

٢ - التنظيم.

٣ - التوجيه.

٤ - الرقابة (المتابعة).

فالتخطيط أحد العناصر المهمة لإنجاح أي عمل بشري، وهو يعني: «التصور المستقبلي المبني على الدراسة والتحليل للوقائع والإحصائيات الثابتة للعمليات المستقبلية، ويكون عادة قبل التنفيذ»(١).

---

(١) الإدارة في التراث الإسلامي، محمد البرعي وعدنان عابدين، ص٢٥.

ويشمل التخطيط ما يلي:

١ ـ رسم الأهداف العامة والخاصة.

٢ ـ دراسة المستقبل (التوقع).

٣ ـ رسم السياسات واللوائح.

٤ ـ تحديد الجداول الزمنية للتنفيذ.

٥ ـ دراسة الموازنات المالية المتوقعة.

فالتخطيط ـ إذن ـ وسيلة من وسائل بناء العمل علىٰ الدراسات والأبحاث العلمية، وليس علىٰ أساس العواطف والرغبات الشخصية، وبه يعرف الإنسان إلىٰ أين هو ذاهب.. وما الطرق التي سوف يسلكها.. والوسائل التي سوف يستخدمها..!

وبهذا يتبيَّن أنَّ دراسة المستقبل أحد العناصر الرئيسة لنجاح التخطيط، حتىٰ إن الكاتب «فايول» اختزل علم الإدارة كله في هذا العنصر تأكيداً لأهميته وحيويته، فقال في تعريف علم الإدارة بأنَّه: «النظر إلىٰ المستقبل».

وفي هذه المقالة لن أتحدث عن عناصر الفكر الإداري، أو عناصر التخطيط، وإنَّما سوف أخصصها لدراسة المستقبل وتوظيفه في العمل الإسلامي.

إن الدعوة الإسلامية من أجلِّ وأشرف الأعمال التي تقوم بها الأمَّة، وهي من أَوْلاها بالتخطيط والدراسة، وما لم تُبن بناءً علمياً صحيحاً، وترسم لها الخطط العلمية والعملية فإنَّها سوف تبقىٰ ذات أثر محدود الفاعلية زماناً ومكاناً، ولا يكفي أن يكون العمل ناجحاً في مرحلة ما من المراحل، ولكن من المهم أن نحافظ علىٰ ذلك النجاح وننميه بصورة مطردة.

لقد ولدت الصحوة الإسلامية المعاصرة في وسطٍ مُسْتَلَبٍ حضارياً وفكرياً، ومتخلف إدارياً وسياسياً واقتصادياً، ورجال الصحوة جزء من هذه الأمة، ولهذا امتدت إلىٰ بعضهم العدوىٰ لتصيب برامجهم التي تُبنىٰ علىٰ العفوية والارتجال والاجتهادات الفردية المتخبطة، وتتأثر بردود الأفعال الآنيَّة، وتنطلق من أطروحات وعظية وتعميمات مبنية علىٰ فراغ علمي، والنتيجة المتوقعة إزاء ذلك: ظهور بعض الإنجازات الغثائية الهشّة التي لا تقوىٰ علىٰ الثبات أمام الأعاصير الفكرية والسياسية.

إنَّ الدارس لسيرة النبي ﷺ يجد أنَّ خطواته المباركة في كلِّ مرحلة من المراحل الدعوية تسير وفق خطة محكمة مستبصرة؛ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

[**يوسف**: ١٠٨].

ولقد كان رسول الله ﷺ ينظر إلىٰ المستقبل دائماً حتىٰ في أحلك المواقف وأحرجها، فها هو ذا يقول لخباب بن الأرت لما شكىٰ له الشدة التي أصابت الصحابة في العهد المكي: «... والله ليتمَّنَّ هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب علىٰ غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١).

ويقول لسراقة بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وهو يطارده يوم الهجرة: «كيف بك إذا لبست سوارَيْ كسرىٰ؟!»(٢).

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٦/ ٦١٩)، رقم (٣٦١٢). وفي كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين بمكة، (٧/ ١٦٤ ـ ١٦٥)، رقم (٣٨٥٢).

(٢) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب، (٢/ ١٢٠)، وابن حجر في الإصابة، (٢/ ١٩)، وفي إسناده نظر؛ انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية للدكتور مهدي رزق الله أحمد، (ص ٢٨٠).

ويقول ـ وهو يحفر الخندق، حينما اجتمعت عليه الأحزاب ـ: «أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة. . أُعطِيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض. . أُعطِيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة»(١).

والعجيب أن بعض الناس يبحث هذه النصوص ونحوها من زاوية واحدة فقط، وهي: أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، وأن هذا من الغيب الذي أظهره الله عليه تأكيداً لنبوته ورسالته، وواجبنا التسليم والتصديق، وهذا حق بلا ريب، ولكن لهذه النصوص زوايا وأبعاد كثيرة، من أجلِّها: أنَّ رسول الله ﷺ وضع أمام عينيه أهدافاً جليلة بعيدة المدىٰ، ثم استحث النفوس الحية والهمم العالية للوصول إليها، دون أن تصاب بالإحباط أو اليأس لعارض طارئ من العوارض القريبة، فهي دعوة لتوسيع الأفق وتعميق النظر والانطلاق إلىٰ تلك الرحاب الواسعة لاستشراف آفاق المستقبل غير المنظور، ومن ثم: السعي الحثيث لاستثمار الحاضر بكل إمكاناته لبناء المستقبل وترسيخه وإزالة عوائقه ومشكلاته.

إنَّ سعة الأفق والنظر إلىٰ المستقبل تجعل الإنسان يدرك تماماً: ماذا. . ومتىٰ. . وكيف يعمل، فهو يتحرك برؤية واضحة وخطىٰ مرسومة، وها هو ذا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرسم خطته الاقتصادية بالاستفادة من سنوات الرخاء المشهودة، لمواجهة سنوات الشدة المتوقعة؛ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ** ﴾ [**يوسف**: ٤٧، ٤٨].

---

(١) رواه أحمد والنسائي بإسناد حسن ـ كما قال ابن حجر في الفتح، (٥/ ٢٨٠) ـ، والطبراني في المعجم الكبير، (١١/ ٣٧٦)؛ انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٤٨ـ ٤٤٩).

وإن شعار: (المستقبل لهذا الدين) شعار صحيح بلا شك، دلَّت عليه الدلائل الشرعية المتواترة، ولكنَّه ليس شعاراً وعظياً، تحشد له القصص وتستثار له النفوس فحسب، بل لا بد من معرفة شروط التمكين وموانعه، والعمل على إعداد الأمة وبنائها، ورسم الخطط المستقبلية الكفيلة بتيسير سبيل ذلك وإنجازه، فنصر الله -عز وجل- لا يتنزَّل على العجزة القاعدين؛ قال الله -تعالى-: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [**الرعد**: ١١]، قال ابن الجوزي: «إن الله لا يُغير ما بقوم من الكروب، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الذنوب، فلا يكون التغيير إلا بعد التغيير، فبظلمنا وذنوبنا صُبَّت علينا المظالم، وهكذا ينتقم الله من الظالم بظالم»[(١)].

إن استشراف المستقبل ليس رجماً بالغيب، أو تعلقاً بالظنون والتخرصات، أو اشتغالاً بالخيالات المجردة الهلامية، وإنما هو توظيف لمعطيات الماضي (المدروس) والحاضر (الملموس) ومسبباتها، لتوقع نتائجها ولوازمها، ومن ثم: رسم خطط العمل وتنظيمها بناءً على ذلك.

إذا أردنا للدعوة الإسلامية أن تنهض من كبوتها، وتقدم برامج أكثر فاعلية ونماءً وتأثيراً في الأمة، فلا بد من وجود مراكز بحثية جادة يستقطب لها أهل العلم والبصيرة والخبرة، ليتم من خلالها: دراسة المستقبل وتغيراته المتوقعة، ورسم الخطط وتنظيمها.

وتتم دراسة المستقبل بالمواءمة بين العناصر التالية:

١ - دراسة النواميس والسنن الكونية، فسنن الله -تعالى- ثابتة لا تتحول ولا تتبدل؛ قال -تعالى-: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾

---

(١) انظر: أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب، محمد محمود الصواف، ص٧.

[**فاطر** : ٤٣] ؛ ولهذا أمر الله ـ تعالىٰ ـ بدراستها والاعتبار بها : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [**آل عمران** : ١٣٧] .

٢ ـ دراسة تاريخ الأمم وتجارب الشعوب والدول في قديم الدهر وحديثه ؛ ففيها عبرة وعظة لكلِّ معتبر ، ولهذا قصَّ الله ـ تعالىٰ ـ لنا قصص الأمم الغابرة ، وقال : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**يوسف** : ١١١] .

٣ ـ دراسة وتقويم تجارب الحركات الإسلامية المعاصرة بكلِّ تجرّد بعيداً عن التعصب لها أو ضدها ، والحذر من عقدة التفرد والتميز التي قد تصاب بها بعض تلك الحركات ، والتي تؤدي في الغالب إلىٰ الدوران حول الذات واعتقاد الكمال (الزائف!) ، وتقزيم الحركات الأخرىٰ ، ومن ثم : إهمال تاريخها وتجاربها ، مع أنَّ الحكمة تقتضي دراسة كل الحركات حتىٰ الحركات التي نرىٰ أنَّها هزيلة وذات تجارب ضعيفة ، لكي لا نقع فيما وقعت فيه ، والسعيد من وعظ بغيره .

٤ ـ دراسة الإمكانات والقدرات المتاحة الموظفة والمستثمرة حالياً ، أو التي يمكن توظيفها مستقبلاً .

٥ ـ التعرف علىٰ مواطن القوة لاستثمارها ودعمها ، ومواطن الضعف لتصحيحها وعلاجها ، ويتطلب ذلك مكاشفة بينية في غاية الوضوح والصراحة ، بعيداً عن المجاملة أو التسويغ .

٦ ـ دراسة الاحتياجات الآنيَّة التي تتطلبها المرحلة الحالية ، (الأهداف القريبة) .

٧ ـ دراسة التطلعات والطموحات المستقبلية (الأهداف البعيدة) ، من خلال الإمكانات والقدرات المتاحة ، ومن ثم : السعي إلىٰ التوفيق بين الأهداف القريبة

والبعيدة، بحيث يكمل بعضها بعضاً، ولا يطغىٰ جانب علىٰ جانب آخر.

٨ ـ ترتيب سُلّم الأولويات العلمية والعملية بمقتضىٰ النصوص الشرعية ومتطلبات الواقع الذي تعيشه الصحوة الإسلامية.

٩ ـ دراسة الظروف المحيطة، والتحديات التي تواجهها الأمَّة، والعقبات المتوقعة ـ من داخل البناء أو خارجه ـ، والحذر من داء التبسيط المفرط للمسائل الذي يؤدي غالباً إلىٰ الغفلة والتهاون وعدم المبالاة، وداء التصعيب المفرط الذي يؤدي إلىٰ تعقيد المسائل وتضخيمها حتىٰ يصاب المرء بالإحباط واليأس، وهما اللذان يُعبر عنهما الأستاذ (مالك بن نبي) بـ «ذهان السهولة، وذهان الاستحالة..!!».

ويضمن ذلك ـ نسبياً ـ حساب المواقف قبل وقوعها، ومعرفة البدائل الممكنة؛ ممَّا يجعل تقدير القرارات أكثر دقة وفاعلية.

وبهذا التكامل والشمول تتحرك الصحوة الإسلامية وفق خطط علمية محكمة مدروسة، تنتقل فيها الدعوة من مرحلة إلىٰ أخرىٰ، تتفادىٰ أو تستعد من خلالها للأزمات المفاجئة، وتساهم مساهمة فاعلة في صناعة الأحداث وتوجيهها، ولا تقف دائماً موقف ردود الأفعال التي تفرض عليها فرضاً..!!؛ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [**الأنفال**: ٦٠]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴾.

[**النساء**: ٧١].

وعلىٰ الرغم من إدراك كثير من الإسلاميين لخطورة هذا الأمر وأهميته؛ فإنَّ التفاعل العملي مع هذه الحقيقة يسير بتثاقل وتباطؤ غريب..!

إن كثيراً من الدعاة يُستهلكون في الأمور الوقتية والأعمال اليومية ـ وهي من الخير إن شاء الله ـ ولكنهم لا يجدون وقتاً لتقويم أعمالهم وتاريخهم، كما لا يجدون وقتاً لرؤية ودراسة مستقبلهم، وقصارىٰ ما يفعلونه النظر تحت أقدامهم.

وإن مستقبل الأمة له علاقة وطيدة بإعداد الأمة وتربيتها تربية شرعية متكاملة، فإلىٰ متىٰ يستمر مصير الأمة ألعوبة بأيدي الساسة الذين ينظرون إلينا بازدراء شديد ومهانة، ويمارسون في حقنا مختلف ضروب الاستبداد والتعسف، ويستخدمون العصا الغليظة التي تُلهب الظهور، بل وتقطع الأعناق . . !!

إن عملاً جباراً ضخماً مثل العمل الإسلامي ـ الذي يُراد منه انتشال الأمة، الأمة كلها، من التخلف سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . . ونحوها ـ لا يقوىٰ عليه آحاد من علماء الأمة ومفكريها مهما بلغت إمكاناتهم وقدراتهم، كما لا يقوىٰ عليه فصيل واحد من فصائل العمل الإسلامي مهما بلغ مفكروه وقواعده وجماهيره؛ فهو يحتاج إلىٰ جهود جبارة تُستنفر لها كل الخبرات والطاقات المتوافرة، أو التي يمكن توفيرها، وتوجَّه بخطط مدروسة وأعمال محكمة؛ قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [**الملك**: ٢٢].

من آفات القُـرَّاء

اشـتـهر عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي صاحب الكتاب العظيم : (الجرح والتعديل) بملازمته لوالده، وكثرة أخذه عنه، وكان يقول : «ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه»[(١)].

إنَّ القـراءة هي إحدىٰ الوسائل المهمة لاكتساب العلوم المختلفة، والاستفادة من منجزات المتقدمين والمتـأخـرين وخبراتهم. وهي أمر حيوي يصعب الاستغناء عنه لمن يريد التعلم، وحاجة ملحَّة لا تقلّ أهمية عن الحاجة إلىٰ الطعام والشراب. ولا تقدُّم للأفراد ـ فضلاً عن الأمم والحضارات ـ بدون القراءة؛ فبالقراءة تحيا العقول، وتستنير الأفئدة، ويستقيم الفكر.

والقُـرَّاء المنهجيون هـم ـ في الغالب ـ النخبة المتميزة، والصفوة المؤثرة في التكوين الفكري والبناء الثقافي والمعرفي للأمة، ولهذا كانت العناية بالقُرَّاء عناية بروح الأمة وقلبها الحي النابض القادر علىٰ البناء والعطاء.

والقراءة ملكة وفنّ لا يجيده كلّ أحد؛ فكم من القُرَّاء الذين يبذلون أوقاتاً طويلة في القراءة؛ ومع ذلك فإن حصيلتهم واستفادتهم منها قليلة جداً. . !

وسـأذكـر ـ مستعيناً بالله ـ بعض الآفات التي قد تعرض لبعض القُرَّاء، وخصوصاً الآفات التي تعرض لهم في بدء سلوكهم لهذا السبيل.

---

(١) سير أعلام النبلاء، (١٣/ ٢٥١).

الآفة الأولى: قلة الصبر على القراءة والمطالعة:

وهذه آفة قديمة ازدادت في عصرنا هذا، وخصوصاً مع كثرة الصوارف والمشغلات الأخرىٰ؛ حيث أصبح كثير من القراء لا يقوىٰ علىٰ مداومة القراءة، ويفتقد الأناة وطول النفس، ولا يملك الجَلَد علىٰ المطالعة والبحث والنظر في بطون الكتب وكنوز العلم والمعرفة، وحينما يبدأ القارئ بالاطلاع علىٰ الكتاب سرعان ما يضعه جانباً ويشتغل بأمر آخر.

إنَّ الساحة الفكرية اليوم تعاني من خلل ظاهر في بناء ملكة القراءة، وها أنت ترىٰ كثيراً ممن يدخلون في (زمرة المثقفين!) من أصحاب الشهادات الجامعية، بل حتىٰ أصحاب الشهادات العليا، ومع ذلك تفاجأ بأن كثيراً منهم ربما يعجز عن إتمام قراءة كتاب واحد خارج تخصصه. . !

إننا نعاني من أزمة حادة في عزوف كثير من المثقفين - فضلاً عن العامة - عن القراءة والبحث؛ مما أدىٰ إلىٰ اضطراب في التفكير العام، وسطحية مفرطة في كثير من الرؤىٰ، وضحالة علمية حجبت منافذ البصيرة.

وترويض النفس وتربيتها وقسرها علىٰ القراءة من أنجح السبل لبناء تلك الخَلَّة الكريمة، خاصة عند نعومة الأظفار وبدء الطلب. وقد يعجز المرء في البدء، أو تصيبه السآمة والملل، ولكنه بطول النفس، وسعة الصدر، والعزيمة الجادة سوف يكتسب بإذن الله - تعالىٰ - هذه الملكة حتىٰ تصبح ملازمة له لا يقوىٰ علىٰ فراقها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم»[1]. وتكوين هذه العادة وغرسها في النفس من أولىٰ ما يجب الاعتناء به لدىٰ القُرَّاء والمربين.

---

(١) أخرجه: الخطيب في تاريخه، (٩/ ١٢٧)، وانظر: السلسلة الصحيحة، (١/ ٦٠٥).

ومن لطيف ما وقفت عليه قول الإمام العسكري عن نفسه: «كان الحفظ يتعذر عليَّ حين ابتدأت أرومه، ثم عوّدت نفسي إلىٰ أن حفظت قصيدة رؤبة: (وقاتم الأعماق خاوي المخترق) في ليلة، وهي قريب من مائتي بيت»(١).

ولست أدري كيف نروم - معاشرَ الدعاة - العزة والتمكين، ونتطلع إلىٰ تغيير مسار التاريخ، وهممنا تتقاصر عن الانكباب علىٰ كتب العلم والمعرفة، ونرضىٰ بالقليل من المعلومات العائمة المفككة التي نحصل عليها من هنا أو هناك..؟!

وانظر إلىٰ تلك المزية الجليلة التي تسنمها أسلافنا في هذا الباب، فها هو ذا مثلاً الحسن الؤلؤي يقول: «لقد غبرت لي أربعون عاماً ما قمتُ ولا نمت إلا والكتاب في صدري»(٢)، وحدَّث ابن القيم فقال: «أعرف من أصابه مرض من صداع وحمَّىٰ، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب عليه وضعه»(٣).

الآفة الثانية: ضعف التركيز:

كثير من القراء يقرأ بعينيه فقط، ولا يقرأ بفكره، ولا يستجمع قدراته العقلية في التفهم والبحث. وربما جال القارئ بعقله يميناً ويساراً، وطافت بخاطره ألوان من الهموم والمشاغل، ثم يفاجَأ بأنه قضىٰ وقتاً طويلاً لم يخرج فيه بمادة علمية تستحق الذكر.

وبعض القراء يبدأ بهمة ونشاط وتركيز، ولكنه بعد أن يقرأ قليلاً من

---

(١) الحث علىٰ طلب العلم والاجتهاد في تحصيله، (ص ٧١).
(٢) جامع بيان العلم وفضله، (٢/ ١٢٣١).
(٣) روضة المحبين، (ص٧٠).

الصفحات يبدأ بالتململ التدريجي، حتىٰ ينفلت الزمام من يديه، ويستيقظ فجأة بعد أن سبح في عالم رحب من الخواطر الشخصية البعيدة عن مادة الكتاب، قال طه حسين: «كثيراً ما نقرأ لنقطع الوقت لا لنغذو العقل والذوق والقلب. وكثيراً ما نقرأ لندعو النوم لا لنذوده عن أنفسنا»[(١)].

وقد يؤدي ضعف التركيز أحياناً إلىٰ اكتساب معلومات مضطربة أو مغلوطة أو ناقصة؛ مما يقود إلىٰ نتيجة عكسية تضر القارئ ولا تنفعه، وقد يتعدىٰ ضرره إلىٰ غيره..!

إن امتلاك القدرة علىٰ التركيز واستحضار الفكر امتلاك لزمام المادة العلمية، وهي السبيل الرئيس للوصول إلىٰ الفهم والإتقان. ويختلف مقدار التركيز المطلوب في القراءة حسب طبيعة الكتاب المقروء؛ ومستواه، وحسب مستوىٰ القارئ الثقافي أيضاً، وحسب الهدف من القراءة؛ فمقدار التركيز الواجب لقراءة كتاب علمي متخصص يختلف عن التركيز المطلوب لقراءة قصة أدبية أو كتاب في الثقافة العامة.

وهذا يقودني إلى تقسيم القراءة إلى نوعين:

النوع الأول: القراءة التصفحية: وهي القراءة التي يريد منها القارئ الاطلاع علىٰ مادة الكتاب وموضوعاته الرئيسة، ويريد منها التعرف من حيث الجملة علىٰ أبوابه وفصوله، ومنهج المؤلف وطريقة عرضه. وهذه الطريقة تصلح أن تكون مقدمة للقراءة، وبعدها يقرر القارئ جدوىٰ إعادة قراءة الكتاب بتركيز، أو الاكتفاء بالتصفح السريع. والاكتفاء بذلك يصلح لتكوين معلومات عامة، ولكنه لا يبني علماً راسخاً.

---

(١) خصام ونقد، لطه حسين، (ص ٦).

النوع الثاني: **القراءة العلمية**: وهي القراءة المركزة التي يستجيب فيها القارئ لمادة الكتاب، ويتفاعل معها، ويرمي إلىٰ تحليلها وبيان أفكارها وأهدافها، وقد يدخل في حوار إيجابي معها. وهذا النوع من القراءة هو الطريق الصحيح للبناء العلمي والمعرفي. ولأهميتها في تثبيت المعلومات، ولأهمية الكتاب المقروء قد يرىٰ القارئ إعادة قراءته عدة مرات لترسيخ المكتسبات العلمية التي تحصَّل عليها، ولاكتساب معلومات أخرىٰ ربما لم تتيسر له في القراءة الأولىٰ، وها هو ذا المزني يقرأ كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي خمسمائة مرة[(١)]!

وآفة كثير من القراء أنَّ أحدهم قد يعمد إلىٰ قراءة الكتاب العلمي العميق قراءة تصفحية كما يقرأ الجريدة، ويكون همه الانتهاء من الكتاب، ولك أن تتخيل ماذا يمكن أن تكون حصيلة القارئ حينما تكون هذه هي طريقته دائماً في القراءة..!!

وقد ذكر العلماء والتربويون أسباباً كثيرة تعين القارئ علىٰ التركيز، مثل: اختيار الأوقات المناسبة، والأماكن الملائمة الخالية من الصوارف، وأن يكون خالي الذهن، ولديه الاستعداد العقلي والنفسي الذي يعينه علىٰ استجماع قدراته الفكرية.. ونحو ذلك مما يطول وصفه، ولكن يجمعها وصف واحد وهو: أن يكون جاداً حريصاً ذا همة صادقة؛ فمن امتلك هذا الوصف حرص علىٰ تذليل كل العقبات التي قد تعرض له.

الآفة الثالثة: ضعف المنهجية في القراءة:

المكتبة الإسلامية مليئة ـ بحمد الله تعالىٰ ـ بالإصدارات العلمية في

---

(١) مقدمة الرسالة، (ص ٤)، وما أجمل قول الإمام البخاري: «لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر»، هدي الساري، (ص ٤٨٨).

مختلف فنون العلم والمعرفة، وتحتوي على حصيلة كبيرة من الكتب والدراسات والأبحاث التي جاءت نتيجة جهود تراكمية متتابعة ومستفيضة تنمو عبر السنين.

ويختلف هذا الإنتاج قوة وضعفاً، وأصالة وتقليداً، ولا يستطيع المرء مهما أوتي من ملكات وقدرات أن يغطي جزءاً يسيراً من ذلك النتاج الضخم.

وقد يحار القارئ ـ المبتدئ خاصة ـ من أين يبدأ؟! وكيف يبدأ؟! ولذا كان الواجب على القارئ أن يرسم لنفسه منهجية واضحة للقراءة يدرك من خلالها إلى أين يسير.. وما أهدافه؟! ولعلِّي أذكر ها هنا الملحوظتين الآتيتين:

الأولى: بناء القاعدة العلمية:

إن ترتيب الأولويات من أهم المسائل التي تعين المرء على النجاح بشكل عام، ويتأكد ذلك في أولويات القراءة، وقديماً قال أبو عبيدة: «مَنْ شَغَل نفسه بغير المهم أضرَّ بالمهم»[(١)]. وكم أحزن على ذلك الشاب الذي لم يستقم عوده، ولم يشتد ساعده، ثم أراه يلقي بنفسه في بحر متلاطم الأمواج كيف يبحر فيه؟! وقد رأينا شباباً لم يقرؤوا بعدُ (كتاب الأربعين النووية)، ثم تراهم يعزمون على قراءة (فتح الباري!) وأشباهه من كتب العلم. وجميل أن توجد هذه الهمة، لكن أحسب أن مآل هؤلاء في النهاية إذا لم يتداركهم الله بفضله: الشعور بالإحباط والعجز، ثم الملل والسآمة؛ لأنهم لم ينموا نمواً طبعياً يتدرجون فيه في درجات العلم بتدرج فهومهم وبصائرهم.

ونظير ذلك من يبدأ بقراءة ما يسمى بـ (الكتب الفكرية) المتقدمة، دون أن تكون له حصيلة شرعية يميز فيها بين الغث والسمين، ودون أن يبدأ بالكتب الفكرية الميسرة التي تكمل بناءه العلمي والثقافي.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (٢/ ١٦٠).

والواجب أن يحرص القارئ في بداءة الطلب على بناء القاعدة العلمية التي يبني فيها مداركه العقلية وملكاته العلمية بناءً راسخاً متيناً.

وبناء القاعدة العلمية يتطلب من القارئ جهداً كبيراً؛ فهو يأخذ من كل فرع من فروع العلم الرئيسة كتاباً أصيلاً يدرسه دراسة تفصيلية، ولا ينتقل منه إلى كتاب آخر إلا بعد أن يتقن أبوابه، ويعرف قواعده وفنونه، ثم إذا قرأ كتاباً آخر في الفرع نفسه كان كالبناء على تلك القاعدة والأساس.

وفي هذا الباب يقول الماوردي: «واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها، لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها. ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر، ولا يعرف الحقيقة؛ لأن البناء على غير أُسّ لا يبنى، والثمر من غير غرس لا يجنى»[1].

والقدرة على اختيار الكتاب المناسب لها دور بارز في اختصار المسافات في طريق القارئ الطويل. وكم من قارئ قد ضلَّ الطريق وحرم الوصول؛ لأنه أراد أن يصعد السطح بلا سُلَّم، أو أراد أن يبني داره على أرض هشَّة غير مستقرة. ومن المفيد هنا التأكيد على أهمية استشارة أهل الاختصاص وأصحاب الخبرة لمعاونة القارئ المبتدئ في ترشيح الكتب المناسبة له، وقديماً سُئل (فولتير) عمن سيقود الجنس البشري؟ فأجاب: «الذين يعرفون كيف يقرؤون»[2].

ومن اللطائف العجيبة أن ابن الجوزي كان يتكلم عن ضرورة ترتيب

(١) أدب الدنيا والدين، (ص ٥٥).
(٢) القراءة أولاً، لعدنان سالم، (ص ٣٨).

الأولويات لطالب العلم، ثم يقول: «قد علم قصر العمر وكثرة العلم، فيبتدئ بالقرآن وحفظه، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفى عليه بذلك منه شيء. وإن صحَّ له قراءة القراءات السبعة، وأشياء من النحو وكتب اللغة، وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل كالصحاح والمسانيد والسنن، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء، فلينظر في أصول ذلك..»[(١)]. ثم ساق ابن الجوزي علوماً يبدأ بها طالب العلم في عصره، قد يعجز عنها بعض المنتسبين إلى العلماء في عصرنا..!

ومن التطبيقات اللطيفة التي يحسن الإشارة إليها قول أبي بكر بن عياش: «قرأت القرآن على عاصم بن أبي النجود فكان يأمرني أن أقرأ عليه كل يوم آية لا أزيد عليها، ويقول: إن هذا أثبت لك، فلم آمن أن يموت الشيخ قبل أن أفرغ من القرآن، فما زلت أطلب إليه حتى أذن لي في خمس آيات كل يوم»[(٢)].

الثانية: بناء القاعدة الفكرية:

ها هنا معضلة يقع فيها كثير من القراء، وهي أنه في أثناء القراءة لا يحرص على بناء فكره، وإحياء قدراته العقلية ولا يستحثها للنظر والتأمل، وإنما يقع أسيراً ينتظر التلقين من المؤلف، ويقف دائماً موقف المتلقي، ومثل هذا وإن حصَّل كمّاً من المعلومات فإنه ليس قارئاً جيداً؛ لأنه لا يملك البصيرة ولا القدرة على التمييز والموازنة بين اجتهادات العلماء والمفكرين. (فالتفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكاً لنا)[(٣)].

ونظير ذلك من يعتني بالحفظ وحده، ولا يلتفت إلى الفهم. والحفظ على

(١) صيد الخاطر، (ص ١٦٩).
(٢) طبقات الحنابلة، (١/ ٤٢).
(٣) التفكير علم وفن، (ص ١٣٣).

الرغم من أهميته وضرورته؛ فإنه لا ينبغي الاكتفاء به، بل يجب تسخيره لخدمة الفقه والفهم، وقديماً عتب الإمام أحمد على بعض المحدثين بقوله: «ما أقل الفقه في أصحاب الحديث»(١)، ومن لطائف الأخبار في هذا الباب ما ذكره إسحاق بن راهويه حيث قال: «كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأصحابنا، فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة، فيقول يحيى بن معين من بينهم: وطريق كذا. فأقول: أليس قد صح هذا بإجماع منا؟ فيقولون: نعم. فأقول: ما مراده؟ ما تفسيره؟ ما فقهه؟ فيقفون كلهم إلا أحمد ابن حنبل»(٢).

إن بناء القاعدة الفكرية للقارئ من أشق المهمات التي تواجه القارئ الجاد؛ فليس كل كتاب يمكن أن يبني فكر الإنسان، حتى بعض الكتب المفيدة التي قد يستفيد منها القارئ مادة علمية قد لا يخدم ذلك البناء؛ وما أحسن قول الإمام ابن القيم: «الفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة»(٣)، وهنا يأتي دور المعلمين والمربين في توجيه طلابهم والأخذ بأيديهم في الطريق القويم. وقديماً كان بعض العلماء يربي فكر الطالب ببعض مسائل الحساب والفرائض، ويحاوره بعويص المسائل، وهذا منهج نبوي أصيل في التربية والتعليم؛ فها هو ذا رسول الله ﷺ يسأل أصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟»(٤).

قال ابن تيمية: «النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدربه ويقويه على

(١) طبقات الحنابلة، (١/ ٣٢٩).

(٢) تاريخ بغداد، (٤/ ٤١٩).

(٣) مفتاح دار السعادة، (١/ ١٨١).

(٤) أخرجه: البخاري، في كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا، (١/ ١٤٥)، رقم (٦١)، ومسلم، في كتاب صفات المنافقين، (٤/ ٢١٤٦)، رقم (٢٨١١).

العلم، فيصير مثل كثرة الرمي بالنُّشَّاب وركوب الخيل، تعين على قوة الرمي والركوب وإن لم يكن وقت قتال، وهذا مقصد حسن. ولهذا كان كثير من علماء السنَّة يرغب في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة كالجبر والمقابلة، وعويص الفرائض، والوصايا، والدَوْر؛ لشحذ الذهن، فإنه علم صحيح في نفسه، ولهذا يُسمَّىٰ الرياضي، فإن لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع: في رياضة الأبدان بالحركة والمشي، كما يذكر ذلك الأطباء وغيرهم، وفي رياضة النفوس بالأخلاق الحسنة المعتدلة والآداب المحمودة، وفي رياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة»[1].

وبهذا يتبين أن القراءة الجادة هي قراءة التفهم والبصيرة والإدراك، ونعمة الفهم من أجلِّ النعم التي ينعم الله ـ تعالىٰ ـ بها علىٰ العبد، و (رُبَّ شخص يفهم من النص حكماً أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائة أو مئتين)[2]. وكم جرَّ سوء الفهم علىٰ صاحبه من الخلل والاضطراب؛ وما أحسن قول الإمام ابن القيم: «ما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة»[3].

(١) الرد علىٰ المنطقيين، (ص ٢٥٥).
والدَوْر: نوع من أنواع العلوم الرياضية، وهو ثلاثة أنواع: الدَوْر الكوني، والدَوْر الحكمي الفقهي، والدَوْر الحسابي. وقد ألَّف فيه ابن تيمية مصنفاً خاصاً أشار إليه في: (الرد علىٰ المنطقين)، (ص ٢٥٧).
(٢) مفتاح دار السعادة، (١/ ٦٠).
(٣) مدارج السالكين، (٢/ ٤٣١).

لا يُستطاع العلم براحة الجسد

كنت أتأمل الجهود العلمية العظيمة التي تميَّز بها الرعيل الأول من سلف الأمة، وعجبت أشد العجب من كثرة الحفظ وقوته، ومن القدرة البالغة على الاستحضار والاستنباط، والجَلَد الكبير على تحصيله وتتبُّعه والرحلة في طلبه.. ونحو ذلك ممَّا تميزوا به - رضي الله عنهم -، ورحت أبحث عن أسباب تلك القدرات الفائقة، فتحصَّلت لديَّ أشياء عديدة ذكرها أهل العلم في أدب الطلب، ولكن استوقفني أمر في غاية الأهمية، ألا وهو الجدّية الصارمة في تلقِّي العلم وتعليمه؛ فالطالب منذ نعومة أظفاره ينذر نفسه للعلم؛ فلا وقت عنده للَّهو المباح - فضلاً عن غيره -، ولا وقت عنده للاشتغال بهموم الدنيا ومسؤولياتها إلا ما ينبغي منها، ترفَّع عن زخارف الدنيا وما فيها، وجرَّد قلبه من ذلك كله، وأقبل بكُلِّيتِه على طلب العلم، وأصبحت لذته العظمى في مذاكرة العلم ومدارسته والعمل به، وأصبح أُنسه وراحته مع كتابه. وتأمل معي سيرة الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - تجد أبلغ العظة والعبرة في ذلك:

قال الإمام أحمد: «كنت ربما أردت البكور إلى الحديث، فتأخذ أمي ثيابي وتقول: حتى يؤذن الناس، وحتى يُصبحوا. وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبي بكر بن عياش وغيره»[1].

ومن جدية الإمام أحمد في طلب العلم ما حدَّث به قتيبة بن سعيد قال: «كان وكيع إذا صلى العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل؛ فيقف على الباب فيذاكره وكيع، فأخذ وكيع ليلة بعضادتي الباب ثم قال: يا أبا عبد الله، أريد أن

(١) الجامع لأخلاق الراوي، (١/ ١٥١).

ألقي عليك حديث سفيان، قال: هات. . [وأخذا يتذكران] فلم يزل قائماً حتى جاءت الجارية فقالت: قد طلع الكوكب، أو قالت: الزُّهرة !!»[(١)].

ومـمَّا يدلك على جَلَد الإمام أحمد ومثابرته قوله عن نفسه: «كنت في كتاب الحيض تسع سنين حتى فهمته»[(٢)].

لقد كانت مجالس الإمام أحمد عامرة بالذكر والطاعة ممَّا زاده سكينة ووقاراً؛ فقد قال تلميذه أبو داود ـ وهو من أعرف الناس به ـ: «لقيت مائتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل، لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذُكر العلم تكلم»[(٣)].

ولهذه الجدية كان أئمة العلم يُجِلُّون الإمام أحمد ويوقرونه؛ فها هو ذا خلف بن سالم يقول: «كنا في مجلس يزيد بن هارون فمزح يزيد مع مستمليه، فتنحنح أحمد بن حنبل، فضرب يزيد بيده على جبينه، وقال: ألا أعلمتموني أن أحمد ها هنا حتى لا أمزح»[(٤)].

وقال أبو بكر المروزي: «أخبرني عبد الله بن المبارك ـ شيخ سمع منه قديماً وليس بالخراساني ـ قال: كنت عند إسماعيل بن علية، فتكلم إنسان فضحك بعضنا، وثَمَّ أحمد بن حنبل، فأتينا إسماعيل، فوجدناه غضبان، فقال: أتضحكون وعندي أحمد بن حنبل؟!»[(٥)].

وقد كان من نتيجة هذا الحرص والجلد على طلب العلم أن أصبح الإمام أحمد من أعظم حفاظ الحديث حتى قال أبو زرعة الرازي لعبد الله بن أحمد:

---

(١) مناقب الإمام أحمد، (ص ٦١).
(٢) طبقات الحنابلة، (١/ ٢٦٨).
(٣) حلية الأولياء، (٩/ ١٦٤).
(٤) حلية الأولياء، (٩/ ١٦٩)، ومناقب الإمام أحمد، (ص ٦٧).
(٥) مناقب الإمام أحمد، (ص ٦٨)، وسير أعلام النبلاء، (١١/ ١٩٤).

أبوك يحفظ ألف ألف حديث. فقيل له : وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب[١].

ونظائر هذا كثيرة جداً عند تتبع أخبـــار الأئمة السالفين، ويمكن أن تكون مادة خصبة لدراسة علمية كبيرة الحجم. . ولكن تأمل معي ما ذكر، ثم انظر حالنا في طلب العلم تجد شيئاً عجباً، وكأنك تتدحرج من قمة جبل شامخ سامق إلىٰ قعر واد سحيق!

قلِّب بصرك هنا وهناك، وانظر في نفسك وإلىٰ طـــلاب العلم من حولك، أترىٰ في حالنا ما يوازي أو يقارب ما قرأته عن سلفنا الصالح؟! وما هي هموم طلاب العلم وتطلعاتهم. . ؟!

كم هي تلك المباحات التي توسع فيها أكثرنا حتىٰ أصبحت علامة تميزنا؟!

من ذا الذي يملك الصبر والجلد علىٰ البحث والدراسة والتنقيب في بطون الكتب بلا كَلال ولا مَلال؟!

من ذا الذي يملك طول النَّفَس والقدرة علىٰ سهر الليالي ذوات العدد للتفكر والاستنباط؟!

إن العلم بحر واسعٌ بعيدة أطرافه، عميقة قيعانه، لن يبحر فيه إلا الأشداء، ولن يصل المرء فيه إلىٰ لآلئه المكنونة وجواهره المخزونة وهو لم يضع قدميه بعدُ علىٰ شاطئه القريب، وصدق يحيىٰ بن أبي كثير حينما قال : «لا يُستطاع العلم براحة الجسد»[٢]، وما أجمل قولة خالد بن صفوان: «مفتاح نُجْح الحاجة: الصبر علىٰ طول المدة، ومِغْلاقها: اعتراض الكسل دونها»[٣].

---

(١) تاريخ بغداد، (٤/ ٤٢٠)، وطبقات الشافعية، (٢/ ٢٧).

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس، (١/ ٤٢٨)، رقم (٦١٢).

(٣) العقد الفريد، (١/ ٢٠٥).

بناءالإنسان

شرَّف الله الإنسان، وكرمه علىٰ سائر المخلوقات بنعمة العقل، وجعل ذلك مناطاً للأمر والتكليف، ولذا فليس غريباً أن يوجد في كتاب الله ـ عز وجل ـ عشرات الآيات التي تدعو إلىٰ التفكر والتعقل، والنظر في ملكوت الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، من مثل قوله ـ عز وجل ـ :

﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ .

[**آل عمران**: ١٩٠] .

ولكن هل يجوز أن يكون عقل الإنسان انعكاساً لأفكار المجتمع من حوله، فيتأثر بنمط التفكير السائد، ولا يفكر إلا فيما يفكر فيه الناس، ولا يعمل إلا ما يعمله الناس . . ؟

إن البيئة الاجتماعية والفكرية التي يعيش فيها الإنسان تؤثر تأثيراً بالغاً علىٰ تصوراته وأفكاره، وهي التي تصنع في الغالب أطروحاته وهمومه. والأمة الإسلامية تعاني من فراغ مدهش، جاء نتيجة تخلف عقود متتابعة، وزاد في ترسيخه وتعميق جذوره الغزو الثقافي الغربي، قبل الاستعمار وبعده. وإننا نعاني من أدواء عديدة في البيئة التي نعيش فيها، ومن ملامح ذلك علىٰ سبيل المثال :

ـ قصور بيِّن في طريقة التفكير .

ـ قصور في نوعية المسائل التي يفكر فيها الإنسان، ويشغل نفسه بها .

ـ قصور في طريقة بحث الأفكار، ومناقشتها مع الآخرين .

ـ قصور في توظيف الأفكار في ميادين العمل والبناء .

وأبناء الصحوة الإسلامية جزء من هـذا المجتمع ، يتأثرون به كغيرهم سلباً وإيجاباً ، ومن مهمات الحركة الإسلامية انتشار هذه الإيجابيات وتنميتها ، ومقاومة السلبيات ، وتقليلها قدر الإمكان . ولقد قامت الحركة الإسلامية بجهد مبرور مشكور في هذا الميدان ، ولكنه أقل بكثير ممَّا يجب ، وأقل بكثير من الإمكانات التي تملكها ، وكما قال الشاعر :

ولم أرَ في عُيوبِ الناسِ عَيباً ... كنقَصِ القادرينَ على التمَامِ

إن بناء الإنسان المفكر القادر على التمييز والنظر من أصعب الصناعات التربوية ، ولكنها في الوقت نفسه من أهم الصناعات . ومهما كثرت الضغوط على الصحوة الإسلامية ، وتزايدت عليها المحن ، وتكالب عليها الأعداء ، وتشعبت بها دروب العمل ؛ فيجب أن يكون ذلك من أولويات البناء والتكوين ، حتى تضمن بفضل الله ـ تعالىٰ ـ بقاءها وصلابتها من جهة ، ونقاءها وسلامة توجهها من جهة أخرىٰ . وإن غياب المنهج العلمي ، وفقدان الضوابط الشرعية في الفهم ، والتلقي ، والعمل ، يؤدي جزماً إلىٰ هذا القصور والخلل الذي نعيشه . والنهوض بالأمة من هذه الكبوة لن يكون إلا وفق الأسس والقواعد الشرعية المبنية علىٰ الكتاب والسنَّة ومنهج السلف الصالح . والعاملون للإسلام لا ينقصهم ـ في الغالب ـ الصدق والإخلاص ، وإنَّما يحتاجون إلىٰ العلم الدقيق بمحكمات الشرع وأصوله ؛ ليتسنىٰ لهم تنزيلها علىٰ مقتضيات العصر . . ولذا كان التحدي الكبير الذي تواجهه الصحوة الإسلامية هو بناء الإنسان المفكر . !

خذ الكتاب بقوة

هجرة المسلمين واستقرارهم في البلاد الغربية حقيقة واقعة منذ سنين طويلة، إلا أنها ازدادت زيادة مطردة وخصوصاً في العقد الأخير، وإن كان لهذه الهجرة ما يسوِّغها شرعاً عند بعض الناس فإن الغالبية من هؤلاء المهاجرين لم يستوطنوا في بلاد الغرب لحجج شرعية، وإنما لأهواء وظروف شخصية واجتماعية.

ودراسة الأحوال الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية لهؤلاء المهاجرين ينبغي أن تكون من أولى أولويات عمل المراكز الإسلامية في بلاد الغرب، لتكون هذه الدراسات ـ بإذن الله ـ الأساس الذي تنطلق منه البرامج الدعوية والتربوية.

ولعل من أبرز الظواهر الاجتماعية السائدة في كثير من أبناء الجالية الإسلامية ضعف التميُّز الإسلامي أو انعدامه فكراً وسلوكاً؛ فأثر البيئة الغربية يظهر بجلاء عليهم، وخاصة الأجيال الجديدة التي وُلدت ونشأت وتعلمت في الوسط الغربي. وهذه الظاهرة نتيجة حتمية لا تحتاج إلى استقصاء أو بحث وإثبات[1]. ولكن الأمر الذي يستحق التأمل والنظر هو حال الإسلاميين خصوصاً؛ فكثير منهم لم يَسْلم من أثر البيئة السلبي، ولعلِّي أكتفي هنا بمثل واحد، وهو ضعف

(١) أجرت الكاتبة الأمريكية (إيفون حداد) دراسة إحصائية عن الأجيال المسلمة المقيمة في أمريكا ومدى قبولها أو رفضها لفكرة العلاقة بين الرجل والمرأة قبل الزواج، فوجدت أن الجيل الأول من المهاجرين يرفض بشدة هذه العلاقة، أما الجيل الثاني من المسلمين الذين ولدوا في أمريكا فقد ظهر أنه أقل رفضاً للفكرة بدرجة كبيرة، أما الجيل الثالث من المسلمين فقد رأى ١٣٪ منهم فقط أن هذه الفكرة غير شرعية! ثم استنتجت الباحثة: أن ثلاثة أجيال تكفي لذوبان المسلم في البيئة الغربية. [انظر: مجلة الصراط المستقيم، عدد (٦٨) ١٤١٨هـ].

التمسك بكثير من الأحكام الشرعية، والتفريط بأحكام الهدي الإسلامي الظاهر، وخاصة في شؤون المرأة. ولست أعني هنا الإشارة إلىٰ الخلاف المشهور بين الفقهاء في كون الوجه والكفَّين عورة أو ليسا بعورة، بل الأمر أبعد غوراً من هذا؛ حيث أصبح الحجاب عند بعضهم - مع الأسف الشديد - معنىٰ لا حقيقة وراءه؛ فهو لون من ألوان التجديد والتمدن، ولم يبق منه إلا منديل رقيق يغطي بعض شعر الرأس، مع لبس البنطال الضيّق، والظهور بألوان الزينة والعطور. أما قضايا الاختلاط ومصافحة الأجانب، بل والمشاركة الرياضية، فحدث عنها ولا حرج.

وإن تحدث في ذلك متحدث اتُّهم سريعاً بالتنطع والتكلف والتشديد، ورُمي بالجهل بالواقع الغربي والظروف الاجتماعية التي يعيشها الناس، وأنه ينظر إلىٰ أمريكا وأوروبا بمنظار الأعرابي الساذَج الذي لا يعقل ولا يبصر..!! وقد سمعت أحد المفكرين المستنيرين يهزُّ يديه أمام جمع من الإسلاميين، ويأمرهم بالرقي الفكري والتجاوب الفاعل مع المعطيات الحضارية المعاصرة، ويحذرهم من الجمود والوقوع في رواسب التخلف والظلامية.. قال كل ذلك لـمَّا سمع أحدهم يتلو حديث النبي ﷺ: «إني لا أصافح النساء»[1]!

والعجيب أنك تجد من بعض المنتسبين إلىٰ الفتوىٰ من المفكرين والدعاة من يسوّغ هذا التمييع ببعض الأدلة المتكلَّفة. وأذكر أن أحد الأشياخ المحاضرين في أحد المؤتمرات الإسلامية في أمريكا بدأ محاضرته بهجوم صارخ علىٰ إدارة المؤتمر التي فصلت الرجال عن النساء، وينعىٰ هذا التخلف الفكري والعقلية البدائية التي ما زالت تسيطر علينا حتىٰ هنا ونحن في أمريكا (!!)، وفي نهاية المحاضرة قام مدير المؤتمر معلِّقاً، وكنا نظنه سوف يدافع عن موقفه، وإذا به يعترف بالخطأ

(١) أخرجه: مالك في الموطأ، في البيعة، باب ما جاء في البيعة، (٢/ ٩٨٢ - ٩٨٣)، وأحمد، (٦/ ٣٥٧)، والنسائي، في كتاب البيعة، باب بيعة النساء، (٧/ ١٤٩). وإسناده صحيح.

ويعتذر للإخوة والأخوات، ويذكر أن سبب الفصل سبب فني وليس سبباً فكرياً، ووعد بإصلاح الوضع في اليوم التالي، ثم وفَّىٰ بما وعد. . !!

إن اندماج المسلمين في البيئة الغربية أدىٰ إلىٰ ذوبان مذهل في الشخصية الإسلامية، وميوعة شديدة في تلقي الأحكام الشرعية، وميل ظاهر إلىٰ البحث عن الرخص بدون فقه ولا بصيرة، ويصدق في وصف كثير منهم قول الله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ** ﴾ [**الحج**: ١١]. والطريف في الأمر أن المسلمين حديثاً من الغربيين الأصليين ربما يكون بعضهم أكثر جرأة وصدقاً في الالتزام بالأحكام الشرعية والاعتزاز بها وعدم التحرج من إظهارها أمام الملأ. . !

وأذكر أنني زرت في الولايات المتحدة الأمريكية منطقةً تنتشر فيها طائفة من طوائف النصارىٰ البروتستانت تسمىٰ بـ (الآمش) يرون أن من أسباب البلاء الذي تعيشه الإنسانية تلك الحضارة المادية التي سيطرت علىٰ الإنسان الغربي، وجرَّته إلىٰ مستنقع الرذيلة والانحطاط، ولهذا انعزلوا عن المجتمع وتركوا كل ألوان الحضارة، وامتنعوا عن استخدام المخترعات التقنية الحديثة جميعها، وأسسوا مجتمعهم الخاص بهم بما في ذلك مدارسهم التي ترعاها الكنيسة، وراحوا يشتغلون بالزراعة وتربية المواشي بوسائلهم البدائية المتاحة، وامتنعوا عن شرب الخمور والزنا. . ! والعجيب أن نساءهم ما زلن يلبسن اللباس الطويل الساتر، ويضعن منديلاً علىٰ الرأس، ولا يختلطن بالرجال، وعلىٰ الرغم من ازدراء بعض إخوانهم الأمريكان لهم فإنهم فخورون بمبادئهم، ومعتزون بمسلكهم. . !!

ولست ها هنا في صدد تحليل ظاهرة (الآمش) هذه، ولكنني أشير هنا إلىٰ أن هؤلاء القوم علىٰ الرغم من أنهم رأوا أن بلادهم وصلت إلىٰ قمة التقدم المادي المعاصر فقد انعزلوا عنها، وراحوا يمارسون معتقداتهم الفكرية والسلوكية بكل

اعتزاز. أفلا نقوىٰ ـ نحن المسلمين الذين نعتقد يقيناً بحمد الله ـ تعالىٰ ـ أننا نملك الدين الحق ـ أن نعتز بديننا، ونتمسك بشرائعنا، ونعض عليها بالنواجذ، ونشمخ برؤوسنا أَنَفَةً وافتخاراً بعقيدتنا وآدابنا السامية. . ؟!

إن التكليف بالأحكام الشرعية باب من أبواب الابتلاء الذي يمتحن فيه دين الإنسان، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [**الملك**: ٢]. وهذا الدين جدّ ليس بالهزل، وإن من أسوأ ما نجنيه علىٰ أنفسنا أن نتخذ شرائع الإسلام ألعوبة نلهو بها، ونأخذ منها بمقتضىٰ أهوائنا، أو أن نجعل الواقع الفكري أو الاجتماعي المنحرف يضغط علينا، ويملي علينا ما يشاء، وها هي ذي دلالات القرآن العظيم واضحة بيِّنة لا تردد فيها ولا خفاء، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [**الأحزاب**: ٣٦]. والهزيمة في الهدي الظاهر آية عظيمة علىٰ الهزيمة القلبية؛ ولهذا شدّد النبي ﷺ في التحذير من ذلك، وقال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[(١)].

(١) أخرجه: أبو داود، في كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، (٤/ ٣١٤)، رقم (٤٠٣١). وقال ابن تيمية: «هذا إسناد جيد»، اقتضاء الصراط المستقيم، (١/ ٢٣٦).

الصراحة مع النفس

اعتاد بعض الناس على التغاضي عن أخطائهم، والحرص الشديد على تسويغها، والْتِماس المعاذير لدفنها والسكوت عنها.. بل قد يتجرأ بعضهم في الدفاع عنها وتحويلها إلى مكاسب وحسنات، كما اعتاد بعضهم النظر إلى الناقد ـ أيّاً كان هدفه أو أسلوبه ـ بعين الريبة والشك، ومن ثم: التهميش والإهمال..!

ربما يكون سبب ذلك: ضعفاً في التربية والتكوين النفسي للفرد؛ مما يجعله يخاف من الاعتراف بالخطأ، وربما يظن أن اعترافه بالخطأ يُسقط من قدره ومكانته، وربما يكون سبب ذلك: التعصب والتحزب الذي يقود إلى الهوى الذي يُعمي ويُصم، وربما تكون هناك أسباب أخرى تختلف باختلاف الناس والأحوال...!.

وتزداد هذه الظاهرة بروزاً عندما يكون الخطأ منسوباً لأحد الأشياخ المتبوعين، أو لإحدى التجمعات الدعوية؛ فيظن بعض الأتباع أن نقد الشيخ أو التجمع قدح وذم في إمامهم أو تجمعهم، ولهذا يكون الدفاع عنه أكثر تشنجاً وتعسفاً، وإلى هذا يشير (المعلمي) بقوله: «من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل، ومن أمضى أسلحته: أن يرمي الغالي كل من يحاول رده إلى الحق؛ ببغض أولئك الأفاضل ومعاداتهم»[1].

هكذا اعتاد بعض الناس، ولكن القرآن الكريم يربِّينا على منهج آخر، إنه منهج المراجعة والمحاسبة، وتدارس الأعمال بكل صدق وتجرد، ومن ثم:

(١) التنكيل، (١/ ٦).

المصارحة والمكاشفة التي تتلمس مواضع النقص والعيب، لا لتضخيمها وازدراء النفس من أجلها، ولكن من أجل تدارك الحال وتقويمه.

انظر إلى الصحابة - رضي الله عنهم - في غزوة أحد بعد أن أصابهم ما أصابهم من اللأواء والعنت والمشقة، يتنزل عليهم قول الله - تعالى - واضحاً جليّاً: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ [**آل عمران**: ١٥٥]، ثم قال الله - تعالى - لهم: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [**آل عمران**: ١٦٥]. وفي غزوة حنين يعاتب الله - تعالى - المؤمنين بقوله: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ [**التوبة**: ٢٥].

بل إن الله - تعالى - يعاتب نبيه محمداً ﷺ - وهو سيد ولد آدم - في غير آية، قال الله - تعالى -: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ**﴾ [**عبس**: ١ - ١٠]، وقال - تعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [**التحريم**: ١]، وقال - تعالى -: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ [**التوبة**: ٤٣].

غاية في الوضوح والصراحة التي تبني الثقة في نفس الإنسان، وتجعله يستثمر هفواته وأخطائه في تقويم النفس وتزكيتها، وإعادة بنائها. وأما المجاملة والمداورة والمداهنة، فكما أنها ترسخ من الخطأ وتنميه، وتسقي جذوره حتى يظهر أثره في الأجيال اللاحقة؛ فهي أيضاً تنفخ في الذات الإنسانية حتى تظن أنها قد بلغت الكمال أو قاربت..!!

والمصارحة في بيان الأخطاء تعني: التناصح وتسديد المعايب بمحبة ورحمة وإشفاق، ولا تعني التفاضح، والتراشق بالتهم للتشفي والانتقام، وتتبع الهفوات للتقليل من أقدار الناس وإسقاطهم. وبين الحالين خيط رفيع لا يحسنه إلا من هداه الله ـ تعالى ـ إلى نور الحكمة وزكاة النفس. والإنصاف من الأخلاق النبيلة العزيزة..!

الشهوة الخفية!

أواخر الخلافة العثمانية كثر صراع السلاطين على الزعامة والنفوذ، وانتشر السجن والقتل بينهم، حتى إنّ أحد الخلفاء قتل تسعة من إخوانه لتثبيت حكمه وحكم ولده من بعده. . !

أليست هذه الحادثة جديرة بالتأمل والنظر . . ؟!

غريب هذا الإنسان . . ألهذا الحدّ يبلغ به بريق الزعامة . . ؟!

ألهذا الحد يطغى ويتجبر من أجل الوصول إلى القمة . . ؟!

وليس هذا المثال نشازاً لا نظير له؛ فكتب التاريخ - في قديم الدهر وحديثه - طافحة بنظائره، بل إنّ التاريخ الحديث يُرينا إذلال شعوب كاملة وإبادتها جميعها، فحبّ الزعامة والظهور يُعمي ويُصم، ويجعل الإنسان يبيع كل شيء من أجل الوصول إليها . . !

وليس عجيباً أن تتواتر النصوص النبوية في التحذير من السعي إلى الإمارة، فهي فتنة تتساقط تحتها كرامة الرجال، وتنكشف أمامها كمائن القلوب . . !

لقد اعتدنا ذلك من الساسة وطلاب الدنيا وأصحاب المغانم الفانية . . ولكن الغريب كل الغرابة أن ينتقل الداء داخل بعض التجمعات الدعوية، ويسيطر على بعض النفوس المريضة، من حيث تشعر حيناً، ومن حيث لا تشعر أحياناً أخرى! حتى يصبح همّ المرء أن يسوّد على خمسة أو عشرة - أو أقل أو أكثر - دون أن يُفكر بورَع صادق في تبعات ذلك في الدنيا والآخرة، فهي أمانة . . وإنها يوم القيامة خزي وندامة . . !

قال يوسف بن أسباط: «الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا»[١].

إنّ ضباباً كثيفاً يطغىٰ علىٰ بصر الإنسان حينما يرىٰ لمعان القيادة يطل عليه من بعيد، وتظل نفسه تحدّثه ويُمنيه هواه بالوصول إليها، فتراه ينسىٰ نفسه ويلهث من أجل الوصول إليها والعض عليها بالنواجذ، ثم تجد التسابق والتنافس، بل الكيد والكذب أحياناً للوصول إلىٰ المطلوب، فالغاية تبرّر الوسيلة! وصدق الفضيل بن عياض حيث قال: «ما من أحد أحبّ الرياسة إلا حسد وبغىٰ، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير»[٢].

بئست الدعوة حينما تكون مغنماً وجاهاً وشرفاً، ينتفخ فيها المرء ويتيه ويتبختر..!

وبئس الداعية حينما يسعىٰ لاهثاً وراء زخرف عاجل وعرض قريب..! وما أجمل قول الحافظ الذهبي: «ما أقبح بالعالم الداعي إلىٰ الله الحرص وجمع المال»[٣].

إنّ حبّ الظهور والعلو بداءة السقوط والانحراف والفشل، وما أحكم قول رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»[٤].

قال شدّاد بن أوس - رضي الله عنه -: «يا بقايا العرب.. يا بقايا العرب! إنّ أخوف ما أخاف عليكم: الرياء، والشهوة الخفية»، قيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟ قال: (حب الرئاسة!)[٥].

---

(١) حلية الأولياء، (٨/ ٢٣٨).
(٢) جامع بيان العلم وفضله، (١/ ١٤٣).
(٣) سير أعلام النبلاء، (١٧/ ٤٨٢).
(٤) أخرجه: أحمد، (٣/ ٤٦٠)، والترمذي، في كتاب الزهد، باب ٤٣، (٤/ ٥٨٨)، وإسناده صحيح.
(٥) شرح حديث أبي ذر، (ص ٢٥)، وجامع الرسائل، (١/ ٢٣٣)، كلاهما لابن تيمية.

وإنّ نصر الله ـ عز وجل ـ وتأييده لا يتنزل إلا على عباده المخلصين، الأخفياء الأتقياء الذين تشرئب أعناقهم وتتطلع قلوبهم إلى النعيم المقيم، في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [**القصص**: ٨٣].

مصالح.. ولكن..!!

من الأصول العامة المقررة أن الشريعة الإسلامية هي شريعة التيسير والاعتدال، ورفع الحرج ودفع الضرر عن المكلفين. وتواترت النصوص الشرعية لتقرير ذلك وبيانه، حتىٰ جزم الإمام الشاطبي أنها بلغت مبلغ القطع[(١)]. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [**الأعراف**: ١٥٧]. ومن فضل الله ورحمته لهذه الأمة أن جعل جميع الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات مبنية علىٰ حفظ مصالح العباد في الدنيا والآخرة، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.

[**المائدة**: ٦].

ولكن بسبب جهل بعض الناس بمقاصد التشريع الإسلامي، وُضعت بعض القواعد في غير مواضعها الصحيحة. ففي هذا العصر الذي انتشرت فيه العلمنة والتغريب، حكمت الأهواء والشهوات كثيراً من التصرفات، وأصبحت الضغوط الاجتماعية تُغيِّر كثيراً من الآراء والمواقف..! وبعض الصالحين بسبب عجزه وضعفه وعدم قدرته علىٰ تحمل أعباء هذا الدين، يحاول أن يسوِّغ لنفسه الوقوع في الخطأ بترديده لبعض القواعد الشرعية وتحميلها ما لا تحتمل، مثل: (الضرورات تبيح المحظورات).. (دفع المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح).. (الشريعة كلها مصالح: إما درء مفاسد أو جلب مصالح).. ونحوها.

وهذه القواعد صحيحة بلا شك، لكنها بسوء الفهم أو غلبة الهوىٰ جُرِّدت من حدودها وضوابطها، وأصبحت تدور مع نزوات النفوس حيث دارت،

---

(١) قال الإمام الشاطبي: «الأدلة علىٰ رفع الحرج في هذه الأمَّة بلغت مبلغ القطع»، الموافقات، (١/ ٣٤٠).

وأُخذت سُلَّما يرتقي عليه الضعفاء للتفلت من بعض الأحكام والالتزامات الشرعية، وتُلبس الأهواء اللبوس الشرعية..!!، (واتباع الهوىٰ ضد اتباع الشريعة، فالمتبع لهواه يشق عليه كل شيء، سواء أكان في نفسه شاقاً أم لم يكن؛ لأنه يصده عن مراده، ويحول بينه وبين مقصوده)(١).

فالمصلحة الدعوية مثلاً -عند بعضهم!- تقضي جواز اختلاط الرجال بالنساء، ومصافحة المرأة الأجنبية، بل تقتضي الكذب والغيبة، وتأخير الصلاة عن أوقاتها.. إلىٰ سلسلة طويلة من المصالح المتوهمة التي تبدأ ولا تنتهي في أبواب متفرقة من أبواب العلم والعمل.

لهذا حرص الفقهاء والأصوليون علىٰ ضبط هذه القواعد بضوابط محكمة تقطع السبيل أمام العابثين أو المتساهلين، ففي باب المصلحة المرسَلَة مثلاً(٢) ذكر الفقهاء شروطاً لا بد من توافرها، وهي:

أولاً: ألا تخالف المصلحة أصلاً من أصول الشرع، أو دليلاً من أدلة الأحكام.

---

(١) الشاطبي في الموافقات، (١/ ٣٣٢). وقد قسم الشاطبي المشقات التي هي مظان التخفيفات ضربين: أحدهما: أن تكون حقيقية، والثاني: أن تكون توهمية مجردة.
ثم ذكر الشاطبي في آخر الفصل قاعدة متينة قال فيها: «تبين من هذا أن مشقة مخالفة الهوىٰ لا رخصة فيها البتة. والمشقة الحقيقية فيها الرخصة بشرطها، وإذا لم يوجد شرطها فالأحرىٰ بمن يريد براءة ذمته وخلاص نفسه، الرجوع إلىٰ أصل العزيمة. إلا أن هذه الأَحْرَوية تارة تكون من باب الندب، وتارة تكون من باب الواجب»، (١/ ٣٣٧).

(٢) ذكر الأصوليون أن المصالح ثلاثة أنواع:
النوع الأول: مصالح معتبرة، وهي التي نصَّ الشارع علىٰ إثباتها والأخذ بها، مثل مصلحة التيمم.
النوع الثاني: مصالح ملغاة، وهي التي نصَّ الشارع علىٰ إهدارها، مثل مصلحة المرابي.
النوع الثالث: مصالح مرسلة، وهي التي لم ينصَّ الشارع علىٰ اعتبارها أو إهدارها، مثل مصلحة جمع القرآن.

ثانياً: أن تكون المصلحة حقيقية لا وهمية.

ثالثاً: أن تكون المصلحة متحققة لعموم الأمة لا لمصلحة فرد بعينه أو طائفة بعينها[١].

ولتنزيل هذه الشروط على الوقائع والمسائل المتجددة يحتاج الأمر إلى دراسة فقهية عميقة، ومعرفة بمقاصد التشريع وأحكامه، وقدرة على النظر والاستنباط، مع تجرد وورع وتثبت، وألا يغلب التأثر بالبيئة الاجتماعية أو الفكرية على النظر العلمي، فالمقصود هو الوصول إلى مراد الشارع الحكيم.

---

(١) انظر: أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاّف، (ص ٩٥)، وأصول الفقه الإسلامي، لبدران أبو العينين، (ص ٢١٤).

ضرورات.. ولكن..!!

من القواعد المشهورة عند الأصوليين والفقهاء قاعدة: (الضرورات تبيح المحظورات)، وقد دلَّت على هذه القاعدة نصوص عديدة من الكتاب والسنَّة الصحيحة، منها: قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

ومن الأصول العامة للتشريع: أن دين الإسلام هو دين اليسر والسهولة ورفع الحرج عن المكلفين، فليست المشقة مطلوبة في ذاتها، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والتكاليف الشرعية باب من أبواب الابتلاء والامتحان، يتميز بها التقي الصابر على دينه، الذي يعض عليه بالنواجذ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

والمشقة المترتبة على الفعل هي التي يُمتحن بها إيمان العبد وجديَّته، وليست كل مشقة تجلب التيسير، فالمشقة المعتادة المحتملة هي مدار الامتحان، أرأيت إلى الرجل الأعمى الذي ليس له قائد يقوده إلى المسجد[1] لـمَّا طلب الرخصة من

(١) أخرجه: مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، (١/ ٤٥٢)، رقم (٦٥٣).

رسول الله ﷺ، لم يرخص له ما دام يسمع النداء، على الرغم من المشقة التي قد تترتب على حضوره إلى المسجد. ولهذا بشَّر الرسول ﷺ المشَّائين في الظُلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة(١)، كما أثنى على المتوضئين على المكاره(٢).

والضرورة مشتقة من الضرر وهو: النازل بما لا مدفع له، وفي الاصطلاح: هي الحالة المُلجئة لفعل الممنوع شرعاً.

وسبق أن أشرت في مقالة سابقة بعنوان: (مصالح.. ولكن؟!) أن بعض القواعد الشرعية كثيراً ما توضع في غير مواضعها اللائقة بها شرعاً، فقاعدة الضرورات تُحدد عند بعض الناس بمعيار الهوى والشهوة، فكلما ضعفت النفس وثقلت عليها الطاعات وعجزت عن أداء التكاليف، لجأت إلى هذه القاعدة وتسلقت عليها للتفلت من التكاليف وتمييع الأحكام الشرعية. والتعلق بقاعدة الضرورات للتخلص من التكاليف آفة يقع فيها الخاصة والعامة على حدٍ سواء، والجامع في ذلك هو رقَّة الدين وضعف العزيمة، وإليك هذين المثالين:

المثال الأول: ثبت في الحديث الصحيح النهي عن سفر المرأة بدون محرم، ولكن قد ينشغل الزوج بدراسته أو وظيفته، أو يريد التقليل من الأعباء المالية المترتبة على سفره، فيجعلها تسافر بمفردها للضرورة فيما يزعم! فيكون هواه حاكماً على فعله.

المثال الثاني: قد يعجز بعض العلماء عن قول الحق أو بعضه أمام سلطان

---

(١) أخرجه: أبو داود، في كتاب الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة، (١/ ١٥٤)، رقم (٥٦١). والترمذي، في كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، (١/ ٤٣٥)، رقم (٢٢٣). وصححه الأرناؤوط في شرح السنة، (٢/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه: مسلم، في كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، (١/ ٢١٩)، رقم (٢٥١).

جائر، فيقع في المداهنة وتزوير الحقائق، خوفاً من البطش والتنكيل، وتكون قاعدة الضرورات هي المخرج الذي ينقذه من هذا المأزق. . ! مع أنه يعلم أنه في غنىً عن ذلك، وإذا لم يستطع الثبات فالسكوت أخف الضررين وأهون الشرَّين. . ! من أجل ذلك كله ذكر العلماء ضوابط علمية محكمة تعصم فَهْمنا لـ (قاعدة الضرورات) من الزلل، وتقطع السبيل أمام العاجزين والمتساهلين، ومن هذه الضوابط:

- أن المعيار الذي تُحدد به الضرورة هو المعيار الشرعي، وليس معيار الهوىٰ والشهوة.

- أن تكون الضرورة حقيقية لا متوهمة، قائمة لا منتظرة. بمعنىٰ أن الضرر متحقق لا محالة إذا لم يُدفع.

- أن لا يكون هناك شيء من المباحات يمكن أن يُدفع به الضرر.

- أن الضرورة تُقدَّر بقدرها، فلا يجوز التوسع والتساهل فيها، فيُفعل من الممنوع القدر الذي يُدفع به الضرر، فالمضطر لأكل الميتة لا يأخذ منها إلا ما يسد رمقه فقط.

- الضرر الأشد يُدفع بالضرر الأخف، فتُرتكب أدنىٰ المفسدتين لدفع أعلاهما.

- الاضطرار لا يُبطل حق الغير.

- أن الضرورة لا تُبيح الفعل ولكنها ترخصه، بمعنىٰ أن الضرورة لا ترفع التحريم عن الفعل، بل ترفع الإثم عن فاعله المضطر.

نكـون..أولا نكون..!
نظرات في مذكرات المرأة الصهيونيـة الرجل

الدارس لتاريخ الحركة الصهيونية الحديثة يجد عجائب وغرائب كثيرة جداً، فمن شعب مهين مستضعف مشتت في كلّ أنحاء العالم، يتحول اليهود خلال سنوات قلائل إلىٰ أمّة قوية مهيبة، يتساقط تحت أقدامها قادة المشرق والمغرب.

جولدا مائير (رئيسة وزراء إسرائيل ١٩٦٩ ـ ١٩٧٣م) إحدىٰ النساء اللواتي ساهمن مساهمة قوية في قيام دولة إسرائيل، قال عنها بن جوريون أول رئيس للوزراء ـ عندما عادت من أمريكا محملة بخمسين مليون دولار بعد حملة تبرعات واسعة ـ: «سيُقال عند كتابة التاريخ: إن امرأة يهودية أحضرت المال، وهي التي صنعت الدولة» [ص١٧١ من مذكراتها]، بل قال عنها ثانية: «إنها الرجل الوحيد في الدولة!» [ص٩٧]، عندما قرأت مذكراتها وجدت دروساً عملية جديرة بالتأمل والنظر، منها:

الأول: ضرورة الإيمان الراسخ بالهدف الذي يدفع للبذل والعطاء، وتحويله من حلم إلىٰ حقيقة واقعة.

الثاني: أن آمال الإنسان لا تتحقق إلا بالإصرار والصبر وطول النَفَس، واستسهال الصعاب..!

ودعونا الآن نقرأ بعض هذه المقاطع التي لا تحتاج إلىٰ تعليق:

«لقد شعرت أن الرد الوحيد علىٰ قتل اليهود في أوكرانيا هو أرض فلسطين، يجب أن يكون لليهود أرض خاصة بهم، وعليّ أن أساعد في تحقيق هذا،

لا بالخطب والتبرعات، بل الحياة والعمل هناك معهم في أرض فلسطين» [ص ٥٤].

« لقد كانت مسألة العمل في حركة العمل الصهيوني تجبرني للإخلاص لها ونسيان همومي كلها، وأعتقد أن هذا الوضع لم يتغير طيلة مجرىٰ حياتي في الستة عقود التالية» [ص ٥٦].

« لقد كانت (فلسطين) هي السبب، ولأجلها حضرنا جميعاً، ولأجلها تحملنا المشاق!.. لقد كنت شغوفة في شرح طبيعة الحياة في إسرائيل لليهود القادمين، وأوضح لهم كيف استطعت التغلب علىٰ الصعاب التي واجهتني عندما دخلت (فلسطين) لأول مرة، ولكن حسب خبراتي المريرة التي مارستُها كنت أعتبر أنّ الكلام عن الأوضاع وكيفية مجابهتها نوعاً من الوعظ أو الدعاية، وتبقىٰ الحقيقة المجردة هي وجوب إقامة المهاجرين وممارستهم للحياة عملياً. لم تكن الدولة الإسرائيلية قد أنشئت بعد، ولم تكن هناك وزارة تعنىٰ بشؤون المهاجرين الجدد، ولا حتىٰ من يقوم علىٰ مساعدتنا لتعلم اللغة العبرية، أو إيجاد مكان للسكن، لقد كان علينا الاعتماد علىٰ أنفسنا، ومجابهة أي طارئ بروح بطولية مسؤولة!» [ص٧١].

« كان الروّاد الأوائل من حركة العمل الصهيوني هم المؤمنون الوحيدون الذين يستطيعون تحويل تلك المستنقعات أو السبخات (!!) إلىٰ أرض مروية صالحة للزراعة، فقد كانوا علىٰ استعداد دائم للتضحية والعمل مهما كان الثمن مادياً أو معنوياً..!»[ص ٧٤].

«عندما أتذكر وضع (السوليل بونيه) [منظمة يهودية] منذ زمن - أي: منذ ١٩٢٧م - في مكتبها الصغير في القدس يوم كانت لا تستطيع دفع أجور

العمال، ثم أفكر في وضعها الحالي، والخمسين ألف موظف وموظفة، وبمدخولها الذي وصل إلىٰ ٢,٥ مليون ليرة إسرائيلية، عندها أحتقر أي شخص يقول أو يُنكر علىٰ الصهيونية تفاؤلها» [ص ٩٥].

«إننا في اجتماعنا هذا لن نُعيد المسيح إلىٰ الحياة (في زعمهم)، ولكن لا بد لنا من القيام بمجهود لنقنع العالم بما نريده وبما نحن عليه!!» [ص ٩٩].

«أعتقد أن هناك سببين فقط يمثلان المحنة القومية التي مررنا بها، أحدهما: الانهيار والاستسلام، والقول: لا أستطيع أن أتابع. والثاني: أن تكشر عن أنيابك وتحارب بكل ما أوتيت من قوة علىٰ كل الجبهات التي تواجهك مهما كانت المدة صعبة وطويلة، وهذا بالضبط ما قمنا به في السابق، ونحن قائمون به الآن!» [ص ١٢٠].

«أدركت أنه لا يكفي لشعب ضعيف أن يثور لكي ينال عدلاً مطالبه، أما مبدأ (نكون أو لا نكون) فعلىٰ كل أمة أن تعمل به وبالتالي تقرر مصيرها بطرقها الخاصة، وعلىٰ اليهود ألا يعتمدوا علىٰ أحد من أجل تقرير مصيرهم» [ص ١٣٠].

«لم يُقدم لنا الاستقلال علىٰ طبق من فضة، بل حصلنا عليه بعد سنين من النزاع والمعارك، ويجب أن ندرك بأنفسنا ومن أخطائنا الثمن الغالي للتصميم والعزيمة» [ص ٢٣٨].

«أخبرت اليهود في جميع أنحاء أمريكا أن الدولة الإسرائيلية لن تدوم بالتصفيق ولا بالدموع ولا بالخطابات أو التصريحات!، إنما يجب توفر عنصر الوقت لبنائها، قلت في عشرات المقابلات: لن نستطيع الاستمرار دون مساعدتكم؛ فيجب أن تشاركونا بمسؤولياتكم في تحمل الصعاب والمشاكل

والمشقات والأفراح، صمموا على المساعدة وأعطوني قراركم! لقد أجابوا بقلوبهم وأرواحهم بأنهم سيضحون بكل شيء في سبيل إنقاذ الوطن!!» [ص ١٨٥].

أرجو من القارئ الفطن أن يقرأ هذا المقطع بتمعُّن شديد، ثم يقارنه بالشعارات الثورية ـ التي ملأت الأمة بضجيجها وصخبها ـ لعبد الناصر ومَنْ بعده من قادة التحرر العربي. . . !!.

تردد الجموع بكل بلاهة:

من الخليج الثائر . . إلى المحيط الهادر . . لبيك عبد الناصر !

فتجاب بكل استهتار ومهانة: سنرمي إسرائيل في البحر !

والنتيجة هي تحطيم الطيران المصري كله على أرض المطار . . فالقادة يعبثون ويشربون حتى الثمالة، ويتراقصون على أنغام الموسيقى، ولا يدركون ما حدث إلا حينما انتهى كل شيء . . !!

وبعد هذا الإحباط . . حتى تلك الشعارات الثورية سقطت . . وتحركت القلوب الرحيمة تندد بالفدائية، وتنادي بالسلام وحقن الدماء . . فلا بد أن نتفرغ للبناء، فقد أنهكتنا الحروب . . !

إنها حرب عقيدة، ولن تنتصر الأمّة بشعاراتها النفعية وإعلامها الرخيص، فمتى يدرك الناس أننا قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله؟! . فإما نكون أو لا نكون . . !!

وأحسب أنني في خاتمة هذا المقال في حاجة إلى التأكيد على أن هذا العرض لأقوال هذه اليهودية ليس سببه الإعجاب بها ـ معاذ الله تعالى ـ؛ ولكن الهدف هو

الإشارة إلىٰ جَلَد هؤلاء الفجار علىٰ نشر باطلهم، وتضحياتهم الكبيرة لمبادئهم، علىٰ الرغم من كفرهم وضلالهم؛ فأين نحن معاشر الدعاة..؟! ولماذا يُكبل بعضنا بآسار من العجز والضعف..؟! قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [**النساء**: ١٠٤].

وها هو ذا عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من جَلَد الفاجر وعَجْز التقي!».

الاستبداد الدعوي!

يقول أهل اللغة: استبد برأيه، يعني: انفرد به[١].

والاستبداد صفة من صفات التسلط وفرض الرأي بالقوة، وهو يقتضي تكميم الأفواه، وقطع الألسن؛ فلا تتحدث إلا في مجال محدود لا تتجاوزه وبطريقة معينة لا تتغير.. بل ينطلق الاستبداد أحياناً ليحجر على أفكار الإنسان وخواطره، بل أنفاسه وزفراته..!

وا عجباً لك.. إذا كان هذا هو الاستبداد عندك، فكيف تتجرأ على وصف الدعاة بذلك..؟!

معاذ الله! فليس هذا حكماً عاماً يتساوى فيه جميع الدعاة، ولكن بعضنا قد يأخذ بنصيب وافر أحياناً من هذه الصفة، وهذه الشريحة الدعوية لا ينبغي إغفالها أو تجاهلها، والاستبداد الدعوي - إن صح التعبير - ممارسة تربوية ذات أبعاد خطيرة، تقتل ملكات الإبداع والإنتاج، وتعطل الطاقات؛ لذا كان لزاماً علينا أن نسلط الضوء عليها بجرأة، لعلاجها والتخلص منها.

وذكر الحقيقة كاملة قد يتبعها مرارة وحزن، ولكنها تنتهي بالسعادة، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقطع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة، ما نحمد معه ذلك التخشين»[٢].

أرأيت إلى ذلك المربي الذي لا يُحب أن يسمع رأياً غير رأيه، ولا يرضى

---

(١) لسان العرب، مادة: (بدد).

(٢) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٥٣).

باقتراح أو نصح من أحد، فإذا تكلّم؛ فَمَن حوله سكوت، وإذا أشار؛ فالناس له تبع، أتباعه ومريدوه حقهم السمع والطاعة، في المنشط والمكره، في العسر واليسر، في الخير والشر. . !!

مفهوم الشورىٰ عنده: إخبار الآخـــرين بما يرىٰ، فإن وافقوه فبها ونعمت، وإن خالفوه، فالشورىٰ مُعلمة لا ملزمة.

إذا نظر إلىٰ وجه مريده طأطأ المريد رأسه حياءً وخجلاً، واحمرَّ وجهه وفرقع أصابعه؛ حتىٰ إذا اشتد عوده، واستوىٰ ساقه، أصبح بارعاً في اجترار الأفكار، وترديد الكلمات، لا يباريه أحد في فن التقليد، ليس له عقل يفكر فقد ضمر وتآكل مع طول العجز، واستفحال المرض، أقرب الأمثال إلىٰ عقله: (من قلّد عالماً لقي الله سالماً)، ولماذا يفكر ويجهد ذهنه، ويضيع وقته وبين يديه شيخه الجهبذ الذي أبصر الحقائق، وأدرك الأمور، وانكشفت له المعضلات. . ؟!

من أنت حتىٰ تستشار أو تبدي رأياً. . ؟!

ومن أنت أصلاً حتىٰ تفكر وتتأمل. . ؟!

أرأيتم كيف نمارس الاستبداد الدعوي. . ؟!

أرأيت إلىٰ طالب العلم الذي يظن أنّ رأيـــه هو عين الحق الذي لاحق غيره ولا يحق لأحد أن يخالفه أو يعترض عليه، اجتهاده قاطع لكل اختلاف، ورأيه جامع لكل خير، فهو البحر الذي تجتمع عنده الأنهر، والوادي الذي تصبُّ فيه الشُّعَب. . !

إذا خالفه أحد ضاق صدره، واضطربت نفسه، وتزلزت قدماه، وإذا أفاق من هول الصدمة، سلّ سيوفه مستعداً للمبارزة والطعان، دون أن ينظر أَحقٌ هو أم باطل.

كل مخالف له مبطل . . مهما كان دليله . . !

وكل معارض له مفسد . . مهما كانت حجته . . !

همُّه أن يتلقىٰ عنه الأتباع، ومراده أن يستمع له الناس، كل تقليد مذموم إلا تقليده . . ! أحكامه صارمة قاطعة، لا تقبل المناقشة أو المحاورة، ومن لم يقبل هذه الأفكار فلينطح برأسه الجدار . . !

جلوا صارماً، وتلوا باطلاً وقالوا صدقنا؟ فقلنا: نعم!

أرأيتم كيف نمارس الاستبداد العلمي . . ؟!

أرأيتم كيف تُوأد الأفكار، وتُخنق الأصوات، وتُحطَّم ملكات الإبداع والإنتاج، ويُربىٰ الخانعون . . ؟! أخزىٰ الله الاستبداد، فكم قتل من الطاقات، وكم قطع من طرقٍ للتصحيح والتغيير . . !

كان السلف الصالح والأئمة الأخيار يختلفون فيقول قائلهم: «جائز ما قلتَ أنت، وجائز ما قلتُ أنا، وكلانا نجم يهتدىٰ به فلا علينا شيء من اختلافنا»[1].

ويقول الآخر: «ألا يستقيم أن نكون إخواناً، وإن لم نتفق في مسألة؟»[2].

أمَّا نحن إذا اختلفنا، فلسان حالنا: (ما أريكم إلا ما أرىٰ . . !).

إن مصادرة آراء الآخرين، وغلق الأبواب في وجوههم؛ يجعل جذور الخطأ تمتد إلىٰ الأعماق، ثم يصعب تصحيحها أو علىٰ الأقل تخفيفها؛ ولهذا فنحن نحتاج إلىٰ ترويض ومتابعة؛ لكي نتعلم كيف نقدّر الرأي الآخر، وننجو من مصادرة عقول الآخرين، والمنهج الشرعي يقتضي أن نقطع في الأمور القطعية التي قطع بها السلف الصالح، وأمَّا المسائل الاجتهادية في فروع العلم سواء في

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، (٢/ ٨٧).

(٢) سير أعلام النبلاء، (١٠/ ٦١٧).

الفقهيات، أو في فروع العمل الدعوي المتجددة فالأمر فيها واسع ولله الحمد والمنّة، والاختلاف فيها أمر وارد لم يسلم منه جيل الصحابة - رضي الله عنهم - وما وسعهم يسعنا، وما قد يكون واضحاً عندك، قد لا يكون كذلك عند غيرك، وما يتبيّن لك صوابه الآن قد يتبيّن لك خطؤه غداً؛ لأمر ينقدح في ذهنك، ولهذا تواتر عن علمائنا وأئمتنا أنهم يقولون في المسألة الفرعية الواحدة قولاً، ثم يقولون بخلافه بعد ذلك.

وها هو ذا الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يريد أن يحمل الناس على كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، ويوحدهم على رأي، فيقول له الإمام مالك: «لا تفعل! فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من قِبَل أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنَّ ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل بلد لأنفسهم». قال الحافظ ابن عبد البر القرطبي: «وهذا غاية في الإنصاف لمن فهم»[١].

ورحم الله الإمام الشاطبي حيث يقول: «فإن الله حكم بحكمته أن تكون فروع الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النُظّار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف فيها لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات؛ فلذلك لا يضر هذا الاختلاف»[٢].

إن الاستبداد خصلة لا يعجز عنها أحد في الغالب، وهو دليل على العجز والضعف. ولكن فتح أبواب المشورة، والتراجع عن الخطأ، واتساع الصدر للرأي المخالف، منزلة لا يرقى إليها إلا عباد الله المخلصون.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، (١/ ١٣٢).
(٢) الاعتصام، (٢/ ١٦٨).

هكذا ندعوهم إلى التعصب..!

نعتب كثيراً على بعض إخواننا، ونتهمهم أحياناً بالتعصب والحزبية والجرأة في ردّ الحق، والتكلف في التِماس المعاذير والمسوِّغات لأنفسهم.

وقد يكون بعض ذلك العتب حقاً، وقد يكون المرء مبالغاً في توصيفه وبيانه أحياناً، ولكن ألم نسأل أنفسنا يوماً: ما أسباب ذلك..؟! وهل لنا دور في ترسيخه وإثارته..؟!

إنَّ الحق ـ ولله الحمد ـ واضح بيِّن، ولكن قد تخفى بعض معالمه على بعض الناس، وقد تلتبس بعض فصوله على آخرين، وهذه سُنَّة قديمة لا يسلم منها كثير من الناس، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مُشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس»[1].

وقد يسعى أحدنا إلى بيان الحق وإبراز دلائله وبراهينه، ويَرُدُّ على مخالفيه ويفنِّد حججهم ومآخذهم في تبنِّيه، ولكنه يستعلي عليهم، ويُسفِّه آراءهم، ويزدري اجتهادهم، وقد يتعرض لأشياخهم وأئمتهم بالهمز واللمز، ويخلط كلامه بشيء من السخرية والاستخفاف والتعيير. وربما ظنَّ المرء أنه نصر الحق بذلك، وأقام الحجة على المخالفين، ولم يصبح أمامهم إلا قبول رأيه والتراجع عن آرائهم، ولكنه يفاجأ بأنَّهم لم يحفلوا برأيه، ولم يتراجعوا عن مواقفهم، فيعمد إلى اتهامهم بالتعصب والحزبية، وقد يتشنج في نقدهم وبيان أخطائهم، ونسي أن: «الحق يُصرع إذا عُمِد إلى إظهاره بالسباب والشتائم»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، (١/ ١٢٦)، رقم (٥٢)، ومسلم، في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (٣/ ١٢١٩)، رقم (١٥٩٩).

(٢) من كلام القاسمي، عن كتاب: (جمال الدين القاسمي)، (ص ٤٣)، تأليف ظافر القاسمي.

إن أسلوب الاستخفاف بالمخالف والقسوة المفرطة في تعنيفه وتخطئته قد يستفزه، ويستثيره للمعاندة، ويجره للمكابرة والتعصب، وقد تأخذه العزة بالإثم؛ فيزداد إصراره وتمسكه برأيه واعتداده بطريقته ومنهجه، وقديماً قال الغزالي: «أكثر الجهالات إنَّما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من أهل الحق أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلال، ونظروا إلىٰ ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر علىٰ العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها»[1].

وقال الإمام الشاطبي: «الطعنُ في مساق الترجيح يبين العناد ـ أي يثيره ـ من أهل المذهب المطعون عليه، ويزيد في دواعي التمادي والإصرار علىٰ ما هم عليه؛ لأن الذي غُضَّ من جانبه مع اعتقاده خلاف ذلك حقيق بأن يتعصب لما هو عليه ويظهر محاسنه، فلا يكون للترجيح المسوق هذا المساق فائدة زائدة علىٰ الإغراء بالتزام المذهب وإن كان مرجوحاً؛ فإن الترجيح لم يحصل»[2].

إننا بهذا الأسلوب نضع سياجاً متيناً، ونحفر خندقاً عميقاً يحول بيننا وبين إخواننا ممن نرجو استقامتهم وصلاحهم علىٰ الطريق؛ وبيان الحق من أوجب الواجبات، ولا يجوز السكوت عنه علىٰ حساب أحدٍ كائناً من كان، ولكن الهدف من بيانه هو نصح الأمة، والرغبة الصادقة في صلاحها ونجاتها، والواجب أن يتلمس المرء أسلم السبل التي توصل إلىٰ المقصود؛ ولهذا لـمَّا أمر الله ـ تعالىٰ ـ نبيه محمداً ﷺ بالبلاغ أمره بأن يكون بلاغاً مبيناً، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [**النحل**: ٨٢]، (ولهذا كان من

(١) الاعتصام، للشاطبي، (٢/ ٢٣٠).
(٢) الموافقات، (٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

شمائل النبي المصطفىٰ ﷺ : أنه رؤوف رحيم، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وانظر إلىٰ ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد فتناوله الناس ـ وفي رواية للبخاري: فثار إليه الناس ليقعوا به ـ فقال لهم النبي ﷺ : «دعوه، وهَريقوا علىٰ بوله سَجْلاً من ماء؛ فإنَّما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين»(١)، ونظائر هذا الأدب النبوي الرفيع كثيرة جداً، وها هي ذي عائشة ـ رضي الله عنها ـ تصف خُلُق النبي ﷺ وصفاً جامعاً فتقول: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحِّشاً، ولا سَخَّاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»(٢).

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الوضوء، باب صب الماء علىٰ البول في المسجد، (١/ ٣٢٣)، رقم (٢٢٠)، وفي كتاب الأدب، (١٠/ ٥٢٥)، رقم (٦١٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٧٤، ٢٣٦، ٢٤٦)، والترمذي، في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في خُلُق النبي ﷺ، (٤/ ٣٦٩)، رقم (٢٠١٦)، وقال: حسن صحيح. وإسناده صحيح.

سـلامة الصدر

من أعظم نِعَمِ الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبد المسلم أن يجعل صدره سليماً من الشحناء والبغضاء، نقياً من الغلِّ والحسد، صافياً من الغدر والخيانة، مُعافىً من الضغينة والحقد، لا يطوي في قلبه إلا المحبَّة والإشفاق علىٰ المسلمين.

قد يجد المرء من بعض إخوانه أذىً أو يصيبه منهم مكروه، وربما يسرف بعض إخوانه في جرحه أو الحط من قدره، بل قد يصل الأمر ـ والعياذ بالله ـ إلىٰ أن يفتري أحد إخوانه عليه الكذب ويتهمه بالسوء.. ومع ذلك كله تراه يدعو الله ـ عز وجل ـ بقلب صادق أن يتوب علىٰ إخوانه، ويتجاوز عنهم، ويهديهم سبيل الرشاد، ولا يجد في نفسه سبيلاً إلىٰ الانتقام أو الانتصار للنفس. وبقدر إدبارهم عنه وأذاهم له، يكون إقباله عليهم وإحسانه إليهم، يهتدي دائماً بقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [**فصلت**: ٣٤، ٣٥]، كما يهتدي بما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لي قرابة أصِلُهم ويقطعوني، وأُحسِنُ إليهم ويسيئون إليّ، وأحلُمُ عنهم، ويجهلون عليّ!! فقال رسول الله ﷺ: «لئن كنت كما قُلتَ فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ[1]، ولا يزال معك من الله ـ تعالىٰ ـ ظهير عليهم ما دمتَ علىٰ ذلك»[2].

وما أجمل قول الشاعر:

---

(١) الملّ: هو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم إياه.

(٢) أخرجه: مسلم، في كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم، (٤/ ١٩٨٢)، رقم (٢٥٥٨).

إذا أدْمَتْ قوارِصُكم فُـؤادي صبـرتُ على أذاكُم وانطـويتُ
وجـئتُ إليكـمُ طَلْـقَ المُحَيَّا كأنِّـي مـا سمعـتُ ولا رأيتُ

كم يعلو قدر الإنسان، وتشرُف منزلته حينما يصل إلىٰ هذه المنقبة العظيمة والخَلَّة الكريمة التي لا يقوىٰ عليها إلا ذوو الصدق والإخلاص. . ولا يستطيع أن يصل إلىٰ أعتابها إلا من جاهد نفسه حق المجاهدة، وفطمها عن شهواتها. . ؟!

أرأيت إلىٰ ذلك الصحابي الجليل - رضي الله عنه - الذي أشار النبي ﷺ ثلاثاً إلىٰ أنه من أهل الجنة، فلمَّا ذهب إليه عبد الله بن عمرو بن العاص وبات عنده ثلاث ليال فلم يره فعل كبير عمل، فعجب عبد الله من حاله وسأله: ما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: «ما هو إلا ما رأيتَ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً علىٰ خير أعطاه الله إياه». فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق![1].

إن هذه الصفة الجليلة من الصفات التي رفعت أقدار الصحابة - رضي الله عنهم - فها هو ذا سفيان بن دينار يقول: قلت لأبي بشير - وكان من أصحاب علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: «كانوا يعملون يسيراً ويُؤجَرون كثيراً». فقال سفيان: ولِمَ ذلك؟ قال: «لسلامة صدورهم»[2].

ولهذا بيَّن ابن القيم أن سلامة القلب: «مشهد شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته، وهو أن لا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذىٰ وطلب الوصول إلىٰ درك ثأره، وشفاء نفسه؛ بل يفرغ قلبه من ذلك، ويرىٰ أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له، وألذ وأطيب، وأعون علىٰ مصالحه؛ فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما

(١) أخرجه: أحمد في المسند، (٣/ ١٦٦)، بإسناد صحيح.
(٢) أخرجه: هناد في الزهد، (٢/ ٦٠٠).

هو أهم عنده، وخير له منه، فيكون بذلك مغبوناً، والرشيد لا يرضىٰ بذلك، ويرىٰ أنه من تصرفات السفيه؛ فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟»[(١)].

إن ثمة حقيقة في غاية الأهمية والخطورة: وهي أن بعض صفوف الدعاة قد يكدرها بعض الأذىٰ والسوء، فقد أصبح الشغل الشاغل لبعض الجهلة والقاعدين البطالين هو الوقوع في أعراض إخوانهم، ثم اشتغل آخرون بإشاعة السوء والنميمة، يفرون في أعراض الناس فرياً، ولا يقيمون وزناً لكبير ولا صغير، ولا يخافون الله ـ تعالىٰ ـ في لحوم إخوانهم!!، واشتغل بعض من جرحهم هؤلاء بالرد عليهم وتبرئة ساحتهم، وإذا كان بعض ذلك مشروعاً، إلا أن الخوف كل الخوف أن يتحول إلىٰ مجرد انتصار للنفس وتنفيس للهمِّ، ينشغل بذلك عن الأوْلىٰ والأهم.

أما النفوس العليَّة الكبيرة العامرة بنور القرآن وذكر الرحمن فإنها لا تلتفت إلىٰ هذه الصغائر، ولا تشغلها تلك التوافه عن السير قُدُماً في هذا الطريق؛ فالناس في شغل، وأولئك الأبرار في شغل آخر.. الناس في قيل وقال، وأولئك الأطهار لهم شأن آخر وهمٌّ أعظم، ومن نذر نفسه وجنّد وقته لخدمة دين الله ـ تعالىٰ ـ فأسهر ليله وأشغل نهاره في تتبع أحوال المسلمين وعلاج مشكلاتهم أيجد في نفسه اطمئناناً لسماع الوشاة، أو رغبة في الانتصار للذات؟!

قد رشَّحوك لأمرٍ لو فَطِنْتَ له ... فاربأْ بنفسك أن تَرعَى مع الهَمَلِ

إن الأمة الإسلامية تمر بمرحلة خطيرة تكالبَ فيها الأعداء عليها من كل مكان، وأمامها مفرق طريق، ولا وقت هنا للَّهو والعبث والاشتغال بهذه الهموم الوضيعة التي أدنىٰ ما فيها أنها تشتت الفكر، وتقبض الصدر، وتلهي الإنسان عن معالي الأمور..!

(١) مدارج السالكين، (٢/ ٣٢٠).

ألا يستقيم أن نكون إخوانا؟!

يسرّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لي بفضله خلال الأشهر الماضية[1] لقاء عدد غير قليل من الدعاة ورجالات الإسلام من مختلف الدول الإسلامية ـ العربية وغير العربية ـ فكانت هذه اللقاءات فرصة ثمينة للتعرف علىٰ تطورات العمل الإسلامي، وتبادل الخبرات والتجارب الدعوية في وقت تعاني فيه الصحوة الإسلامية من أزمة كبيرة في وسائل الاتصال والإعلام، فلا يتيسر للإنسان في كثير من الأحوال أن يتعرف علىٰ أوضاع الدعوات الإسلامية إلا من خلال القنوات الإعلامية الرسمية التي تتعمد تشويه الحقائق وتزويرها.

ومن ثم فإن لقاء عدد كبير من الدعاة والمهتمين بالعمل الإسلامي من أقطار مختلفة، وفي أوقات متقاربة، يكون مكسباً عظيماً يثري المعرفة الدعوية، وينضج التجارب العلمية، وخاصة أن كثيراً من الدعوات تعاني من العزلة؛ إذ إن كل اتجاه إسلامي يشعر بأنه منقطع الصلة بالآخرين، لا علاقة له بإخوانه، ولهذا تراه يبدأ من حيث بدأ غيره، ويعيد التجارب والأخطاء نفسها، بسبب قصوره وجهله حيناً وبسبب عجزه وعدم اطلاعه علىٰ مكتسبات الآخرين حيناً آخر.

ولقد سررت جداً بتلك الأخبار التي تواترت عن الانتشار المذهل للصحوة الإسلامية التي فرضت نفسها علىٰ الساحة الإعلامية والعالمية، حتىٰ فاق هذا الانتشار والتنامي المتسارع توقعات المحللين والمتابعين، ومراكز الدراسات المستقبلية المتخصصة، علىٰ الرغم من كثرة العوائق، وألوان التغريب والعلمنة التي تجتاح العالم الإسلامي؛ مما يؤكد صلابة هذا الدين وتجذره في بلاد المسلمين.

---

(١) في سنة ١٤١٧هـ.

ولكن . . أزعجني جداً ذلك الصراع العنيف بين فصائل العمل الإسلامي، حتى إنني أحسست بأن الجامع المشترك الأكبر بين جميع الفصائل الإسلامية هو الخلاف، بل الصراع الذي يصل إلى حد الاتهام والتجريح والعداء . . !!

رأيت تسابقاً عجيباً على السباب والشتائم والتراشق بالتُّهم . . والتقليل من شأن الآخرين والاستهانة بمنجزاتهم، ويتبع ذلك تزكية النفس والثناء على الذات، والظهور بمظهر المشيخة والأستاذية .

تستمع إلى الداعية فيعجبك حسن منطقه وهدؤه وسلاسة عرضه، وموضوعيته في الحوار، حتى إذا سألته عن داعية من فصيل آخر، أو جاء الحديث عن مواقف الفصائل الأخرى : تفاجأ بأن الموضوعية التي يتميز بها قد تبخرت، وعباراته المهذبة قد انقلبت إلى نقيضه، وعلته الكآبة والضجر . وإذا كان هذا المتكلم مهذباً فإنه يميل إلى التعميم المطلق ويعطي إجابات عائمة لا تفهم منها شيئاً . وكلما توسعت دائرة الحديث ازدادت الهوة وزاد التشنج، وضعفت القدرة على ضبط النفس وغابت المنهجية عند الإنسان . . !!

استمعت إلى أحدهم في محاضرة عامة يتحدث عن الأخوة والمحبة، وأخذ يسرد - ببراعة فائقة - النصوص الشرعية في التحذير من الغيبة والنميمة، حتى أَسَرَ القلوب، وأثَّر في سامعيه تأثيراً بالغاً . ثم اجتمعت به - بعد يومين فقط - في مجلس خاص ضم عدداً من الدعاة، فرأيته يتحدث بلسان آخر عن إخوانه . . أصبح التجريح أول ما ينطلق من اللسان، وأصبحت التهمة والأخذ بالظنة هي الأساس، وتحول الاختلاف السائغ في الرأي إلى أزمة في الثقة !

سريع إلى ابن العم يلطم خدَّه   وليس إلى داعي الندى بسريع !

وبسبب هذه المواقف المحزنة، شعرت بألم شديد، وتساءلت بمرارة : أهذه

هي الصحوة الإسلامية التي يرجىٰ أن تحرر الأمة من ذل العبودية، وتنقذها من أَسْر التخلف والضياع. . ؟!

لماذا كل هذا الصراع والخلاف؟!

لا شك بأن بعض الخلاف مبني علىٰ أسس علمية وشرعية. . ولكن ليس من الشرع أن يكون المسلم سبّاباً فحاشاً يطوي في قلبه سوء الظن والحقد والحسد، ويتقصد الإساءة للآخرين. مع العلم أن كثيراً من الخلاف الدائر في ظني - والله أعلم - ناتج عن أسباب وهمية مفتعلة ليس لها حظ من الأثر أو النظر، وتُبنىٰ في أغلب الأحوال علىٰ أسس حزبية وانفعالات نفسية؛ إذ إن الولاء - مع الأسف الشديد - للشيخ أو الحزب مقدم علىٰ الولاء للمنهج والعقيدة!

وأنا علىٰ يقين بأن هذه القطيعة المتزايدة لا تؤدي إلىٰ الضعف والهزال فحسب. . بل تؤدي أيضاً إلىٰ الموات والزوال، وكما قال الله - تعالىٰ -: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [**الأنفال**: ٤٦].

وإذا لم يستطع الدعاة أن يتوحدوا فيما بينهم - علىٰ الرغم من وحدة المنهج -؛ فكيف نستطيع جمع الأمة كلها علىٰ راية واحدة؟!

إذا كانت الأهواء والانتماءات الحزبية هي التي تحدد مواقفنا؛ فكيف نستطيع مواجهة ذلك السيل المتدفق من مكايد الأعداء ودسائسهم؟!

لقد استعرَت نيران العداوات بيننا، وازداد لهيبها، وأحرقت منا ما أحرقت، ومع ذلك لا تزال الهوة تكبر، والخرق يزداد اتساعاً.

وأقولها صادقاً: حتىٰ متىٰ يكون ذلك. . ؟!

ولست أدعو في هذه المقالة إلىٰ إذابة الخلافات المنهجية، ووضع الرؤوس في

الرمال، والاجتماع بأي صورة كانت. ولكنني أنادي الجميع لطرح الخلافات الوهمية، ونسيان الأهواء الشخصية والصراعات الحزبية. وأما الاختلافات العلمية فتُعالج بطريقة شرعية من أهل العلم والاختصاص، بعيداً عن المهاترات والاتهامات، ويكون معيار الحق كما قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

إن استعراض مسائل الخلاف، ثم دراسة أسبابها العلمية وجذورها النفسية، ليس مطلباً ثقافياً أو ترفاً معرفياً، بل هو مطلب شرعي لازم لا قوام للأمة إلا به.

ومن المعلوم أننا لن نتفق علىٰ كل المسائل، ولكننا بعد الدراسة والتمحيص يجب أن نتفق علىٰ مسائل الأصول التي لا يُعذر فيها المخالف، وأما مسائل الاجتهاد فيجب أن تتسع لها الصدور.. وما أجمل ما قاله يونس الصدفي: «ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسىٰ، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟!»[1].

(١) سير أعلام النبلاء، (١٠/ ١٦ ـ ١٧).

مع الناس في حاجاتهم

لبث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يُحذِّر الناس من الشرك، ويدعوهم إلى التوحيد، ويربي المؤمنين عليه. ولكنَّ العجيب اللافت للنظر أنَّ ذلك الأمر العظيم لم يصرف النبي ﷺ عن العناية بحقوق الناس الدنيوية، وحاجات المستضعفين؛ ففي العهد المكي تنزَّل عليه قول الله - تعالى -: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦]. وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤]. وقوله - تعالى -: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣]، ونحوها من الآيات كثيرة جداً، ومثلها كذلك الأحاديث النبوية التي تواترت في الحث على السعي في قضاء حاجات الناس وتفريج كرباتهم؛ فمن ذلك قول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1]. وعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله». وأحسبه قال: «كالقائم لا يَفْتُر، وكالصائم لا يُفْطِر»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب المظالم، (٥/ ٩٧)، رقم (٢٤٤٢)، ومسلم، في كتاب البر، (٤/ ١٩٩٦)، رقم: (٢٥٨٠).

(٢) أخرجه: البخاري، في كتاب الأدب، (١٠/ ٤٣٧)، رقم (٦٠٠٧)، ومسلم، في كتاب الزهد، (٤/ ٢٢٨٦)، رقم (٢٩٨٢).

إنَّ أولويات الدعوة والتغيير في هذه الأمة كثيرة جداً، والحكمة الشرعية تقتضي البدء بالأَوْلىٰ فالأَوْلىٰ، ولكن هذا لا يعني إلغاء العناية بالحاجات الدعوية والاجتماعية المفضولة؛ فالأمور تُقدَّر بقدرها، والفقه الناضج هو الفقه الذي يوائم بين تلك الحاجات بتوازن تام.

ومن ذلك السعي الحثيث لكفالة ضروريات الناس وتوفير حاجياتهم التعليمية والاجتماعية والصحية.. ونحوها؛ فهي من الطرق الرئيسة للتأثير في نفوسهم وتأليف قلوبهم. قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبَهمُ   فطالما استعبد الإنسانَ إحســـان

وقد التفت إلىٰ هذا الأمر في عصرنا فرق كثيرة من أهل الضلال، منهم:

١ - الشيوعيون الذين طالبوا بحقوق العمال والطبقات الكادحة - زعموا! -، وأصبحت شعاراتهم البراقة - في يوم من الأيام - تكتسح صفوف المستضعفين والبسطاء..!

٢ - المنصِّرون الذين استغلوا ثالوث الفقر والمرض والجهل الذي يضرب بجِرانه في أنحاء المعمورة لترويج باطلهم.

ونحن الدعاة أوْلىٰ الناس بهذا الأمر، فمن الخطأ الجسيم الذي قد يرتكبه بعض الدعاة أن يتغافلوا عن مشكلات جمهور الأمة، وأن يهمشوا قضايا رجل الشارع واحتياجاته اليومية؛ فليس من فضول البرامج الدعوية أن تُؤسس الجمعيات الخيرية التي ترعىٰ العجزة والأرامل والأيتام، وليس من العبث أن نسعىٰ في حاجات الفقراء والمستضعفين والمرضىٰ، وليس من الفقه والسياسة الشرعية أن نتعامىٰ عن التصدع النفسي والاجتماعي الذي ينخر في ديار المسلمين، وليس من المروءة أن نقصر الجهد عن مواساة المنكوبين، وإغاثة

الملهوفين. قال رسول الله ﷺ: «ترىٰ المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد؛ إذا اشتكىٰ عضواً تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ»(١).

وإنك لتعجب أشد العجب من بعض الدعاة يدع كثيراً من الهموم العامة للأمة، ولا يلقي لها بالاً، ويترك العلمانيين وأدعياء الوطنية يَلْغون فيها، ويتشدقون بأطروحاتهم. ألا تتيح لنا ثقافتنا الإسلامية وأوْلوياتنا الدعوية أن نطرح قضايا التنمية والنهضة، ونعالج مشكلات البطالة، وتعلو لنا يد جادة تدعو إلىٰ العدل الاجتماعي، ويكون لنا صوت مؤثر ورائد في انتشال الأمة من حمأة التخلف والانحطاط الحضاري..؟!!

لقد رأيت لبعض فضلاء المفكرين الإسلاميين أطروحات فكرية تُزري ببعض الأعمال الاجتماعية والإصلاحية، وتهوِّن من شأن المؤسسات الخيرية، ويزعم أن ذلك يستهلك طاقات الدعاة ويشتت جهودهم، ويبعدهم عن الهدف الحقيقي، والتغيير الشامل لمسار الأمة..!

وهذا صحيح بلا شك إذا كانت تلك الأعمال الاجتماعية هي البرامج الإصلاحية الوحيدة التي نقدمها للناس، ولكنها حلقة مهمة من حلقات النهضة الشاملة للأمة إذا كانت تقدم في رؤية علمية واضحة المعالم ضمن سلسلة من الإنجازات التي تأتلف مع بعضها، وتتكامل في رسالتها، وتخرج من مشكاة واحدة يتمم بعضها بعضاً؛ فمنا من يعتني بالإصلاح الاجتماعي، وآخر يتخصص في الإصلاح التربوي، وثالث يتصدر للإصلاح الفكري، ورابع للإصلاح السياسي.. وهكذا.

وأحسب أن من أبرز جوانب التحدي الذي تواجهه الصحوة الإسلامية هو

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الأدب، (١٠/ ٤٣٨)، رقم (٦٠١١). واللفظ له، ومسلم، في كتاب البر، (٤/ ١٩٩٩)، رقم (٢٥٨٦). بلفظ: «مثل المؤمنين... إذا اشتكىٰ منه عضو».

الدخول المتوازن في كل شرائح المجتمع وطبقاته؛ فالطرح الإصلاحي النخبوي وحده يبقى محدود التأثير منغلقاً في قاعات الدرس وبطون الكتب، والطرح الجماهيري وحده يبقى ضعيف التأثير لا يستوعب إمكانات الأمة وقدراتها، ولا يحسن توظيفها واستثمارها. وأما المواءمة بين الأمرين فهو التجديد الذي يحيي الأمة ويسلك بها سبيل النهضة والتغيير المنشود.

كيف نخاطب الجماهير..؟

دأب عدد كبير من رموز الصحوة الإسلامية علىٰ مخاطبة الجماهير من خلال المنابر المختلفة، ووجد كثير منهم - ولله الحمد - إقبالاً واسعاً، والتفَّت الجموع بين أيديهم، وهذه نعمة عظيمة يفتقدها كثير من رموز الفكر والأدب والثقافة الآخرين. ولهذا أحسب أنَّه من الواجب علىٰ الإسلاميين إعادة النظر في طروحاتهم وطريقتهم في الخطاب وتقويمها؛ لتحصيل أعلىٰ المصالح ودرء المفاسد قدر الإمكان، والاستفادة من التجربة الماضية. وها هنا أمور أرىٰ أنه ينبغي مراعاتها في هذا الأسلوب، أضعها بين أيديكم للحوار وتبادل الرأي حولها:

أولاً: الإيمان بالهدف:

مرَّ علىٰ الناس في العصور التاريخية المختلفة عدد من المصلحين والمفكرين ودعاة التغيير، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم. وبتتبع سيرهم وأخبارهم نجد أن صلة الجماهير بهم تزداد وترسخ مع الوقت إذا اطمأنوا إلىٰ صدقهم وجديتهم وإيمانهم العميق بأهدافهم التي ينادون بها، واستعدادهم القوي علىٰ تحمل تبعات تلك المبادئ، والتضحية من أجلها. وفي المقابل نجد أن الجماهير تنفضُّ وتتفلت من تلك الرموز إذا رأت فيها العجز والهوان، أو أحست ضعف مصداقيتها وجديتها، وقديماً قال الرافعي: «رؤية الكبار شجعاناً هي وحدها التي تخرج الصغار شجعاناً، ولا طريقة غير هذه في تربية شجاعة الأمة»[1].

(١) مجلة الرسالة العدد (٩٤)، محرم ١٣٥٤هـ.

ثانياً: الحذر من الخيلاء وحب الرياسة:

محبة الناس للمصلح وتجمُّعهم بين يديه فتنة عظيمة قد تطغىٰ علىٰ بعض النفوس الضعيفة، وتُنبت فيها الخيلاء والاستكبار وحب الرياسة، وتصرفها عن كثير من معالي الأمور. وكم من الرموز التي تساقطت ولَفَظَتْها الجماهير، أو تناستها حينما غلبت عليها تلك الشهوة، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»[(١)].

ولهذا قال ابن تيمية: «كان شداد بن أوس يقول: يا بقايا العرب، يا بقايا العرب! إنما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية. قال أبو داود صاحب السنن: الشهوة الخفية: حب الرياسة. وذلك أن حب الرياسة هي أصل البغي والظلم»[(٢)]. وقال أيضاً: «وكثيراً ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له»[(٣)].

وملاحظة النفس ومراجعتها من أعظم أبواب المجاهدة التي ينبغي للمرء أن يأخذ بها، والغفلة عن ذلك قد تؤدي إلىٰ الزلل، ومن تعلَّق قلبه بحبِّ الظهور صغرت نفسه، وغلبت عليه الأهواء الشخصية وتردَّىٰ في سلسلة من الانحرافات التي تزيد بزيادة تلك الآفة القلبية، وما أحسن قول الرافعي: «إذا أسندت الأمة مناصبها الكبيرة إلىٰ صغار النفوس كبرت بها رذائلهم لا نفوسهم»[(٤)].

---

(١) أخرجه: الترمذي، في كتاب الزهد، باب (٤٣)، (٤/ ٥٨٨)، رقم (٢٣٧٦)، وقال حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (٥٤٩٦).

(٢) شرح حديث أبي ذر (ص ٢٥)، وانظر: رسالة في التوبة ضمن جامع الرسائل، (١/ ٢٣٣).

(٣) الفتاوى، (١٠/ ٢١٥).

(٤) مجلة الرسالة العدد، (٨٤)، ذو القعدة ١٣٥٣هـ.

ثالثاً: الحذر من الانسياق الأعمى خلف العامة:

حينما يتصدر المرء لمخاطبة الجماهير قد يقع - من حيث لا يشعر! - في دائرتهم، فيقودونه ويدفعونه لمحبوباتهم، ويزداد تأثره بمشاعرهم الجياشة عند كثرة الهتاف والتصفيق، وتأخذه النشوة بكثرة الحشود؛ ومعلوم أن نسبة كبيرة من أولئك العامة لا ينظرون إلىٰ أبعد من مواقع أقدامهم، ولا يحيطون بكثير من التداخلات الفكرية والسياسية، ولا يَزِنون ردود الأفعال بالموازين العلمية.

وأحسب أن التأثر بالجماهير نوعان:

الأول: التأثر الإيجابي:

وهو في غاية الأهمية؛ لأنهم يشعرون بالتفاعل والاهتمام، ويَحِسُّون بأهمية آرائهم، وقيمتهم المعنوية، كما يَحِسُّون بدورهم في البناء والتغيير؛ ممَّا يزيدهم ارتباطاً بدعاة الإصلاح، ويحفزهم إلىٰ المزيد من التجاوب والتعاون.

الثاني: التأثر السلبي:

حيث ينساق المرء وراء عواطفهم، ويقع في شراكهم، ويصبح برنامجه الإصلاحي مرتبطاً برغباتهم، وخطته العملية متأثرة بأهوائهم، وتكون النتيجة أن الجماهير هي التي تقوده، وهو يحسب أنه يقودهم. !!

رابعاً: الدقة في الخطاب:

الخطيب الذي يتصدر لمخاطبة الجماهير لا يسلم من الخطأ والزلل، حاله كحال غيره من المتحدثين، «وليس صنف من الناس إلا وله حشو وشوْب»[(١)].
ولكن خطأ الخطيب يكون علىٰ رؤوس المنابر يسمعه الناس كبيرهم وصغيرهم،

---

(١) تأويل مختلف الحديث، (ص ٥٤).

وقد يطير خطؤه في الآفاق. وبعض أصحاب النفوس المريضة يكون همه أن يتصيد العثرات، ويتسقَّط الزلات، وتكون فاكهته التي يتندر بها ويفرح، ولهذا قال عمر بن الخطاب: «ما كانت علىٰ أحد نعمة إلا كان لها حاسد، ولو كان الرجل أقوم من القدح لوجد له غامزاً»(١). ولمَّا قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد! إنَّ ها هنا قوماً يحضرون مجلسك ليتتبعوا سقط كلامك! فقال الحسن: «يا هذا! إني أطمعت نفسي في جوار الله فطمعتْ، وأطمعت نفسي في الحور العين فطمعتْ، وأطمعت نفسي في السلامة من الناس فلم تطمع، إني لـمَّا رأيت الناس لا يرضون عن خالقهم علمت أنهم لا يرضون عن مخلوق مثلهم»(٢).

إنَّ من يتصدر لمخاطبة الناس عليه أن يعتني بما يصدر عنه اعتناءً شديداً، وينتقي عباراته انتقاءً دقيقاً، ويحرص حرصاً كبيراً علىٰ أن يخرج كلامه بدقة وإتقان، حتىٰ ينفع سامعيه ويسد - قدر الطاقة - منافذ الهوىٰ عند بعض الناس، ومع ذلك كله لن يسلم أحد من الخطأ مهما بلغ حرصه. ويعجبني المتحدث الذي يملك الجرأة والشجاعة علىٰ مراجعة أقواله، ويوضح ما استشكله الناس عليه، ويعترف بخطئه إن كان ثمة خطأ.

خامساً: الحذر من التعلق بالأشخاص:

من الآفات المزمنة التي تظهر عند كثير من الجماهير؛ سواء أكان ذلك علىٰ المستوىٰ الفكري أم الدعوي أم الاجتماعي أم الفقهي... ونحوها: التعلق بالرموز والانكفاء عليها، والشعور بأن هؤلاء وحدهم القادرون علىٰ إحياء الأمة والنهوض بها من كبوتها، فإذا عجز هؤلاء أو حبسهم العذر أصيب الناس

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر القرطبي (١/ ٤٠٦).
(٢) تبيين كذب المفتري، لابن عساكر (ص٤٢٢).

بالإحباط، وثارت في كوامنهم دواعي العجز والحيرة، ويؤدي التعلق بالأشخاص أحياناً إلىٰ ازدراء مصلحين آخرين ربما لا يقلون عن غيرهم أصالة وفهماً وقدرة، وقد يؤدي هذا التعلق إلىٰ طمر الإمكانات الكامنة في بقية الأفراد، أو عدم استغلال الفرص السانحة لهم.

وقد يُرسِّخ هذا المفهومَ بعضُ هؤلاء الرموز، ويدفع الناس إلىٰ تقليده وتعظيمه، بلسان المقال حيناً، وبلسان الحال أحياناً أخرىٰ. والتقليد قاصمة من القواصم التي تقتل كل ملكات الإبداع والتفكير، وتحوِّل الجماهير إلىٰ مجرَّد قطعان هائمة يسوقها الراعي ذات اليمين وذات الشمال، وهي تستجيب له بكل دعة وخنوع. والنجاح الحقيقي للمصلحين ليس بالقدرة علىٰ أن يصرفوا وجوه الناس إليهم فحسب، بل بالقدرة علىٰ إحيائهم واستنبات البصيرة في عقولهم؛ فمن تبعهم تبعهم بحجة وبرهان؛ ولذا فإن الواجب علىٰ هؤلاء المصلحين أن يرسخوا ضرورة ارتباط الناس بالمنهج الصحيح وليس بذواتهم.

سادساً: وضوح الرؤية:

تتم مخاطبة الجماهير عند بعض المصلحين بطريقة تلقائية راتبة؛ حيث لا توجد لديهم رؤية واضحة، ولا يدرون خلالها ما الأهداف ذات المدىٰ البعيد التي يريدون الوصول إليها؛ وقد ترىٰ أن كثيراً من طروحاتهم الفكرية والدعوية مبنية علىٰ خواطر مشتتة تطرأ علىٰ أذهانهم من هنا أو هناك، بل تلمس أحياناً أن بعضهم لا يعطي لنفسه فرصة التفكير في برنامجه العملي، ولهذا تراه يجتر كثيراً من أقواله وأقوال غيره بدون بصيرة!

إن وضوح الأهداف يعين كثيراً علىٰ الاعتبار بالماضي واستبصار الحاضر واستشراف المستقبل، ويدفع المرء إلىٰ رسم أطر واضحة يعرف فيها

بدقة: ما الموضوعات التي سوف يتحدث عنها؟! وما القواعد التي يريد بناءها؟! وما الأمـــــراض الفكرية والمنهجية التي يقصد معالجتها؟! وما أنسب السبل لتحقيق ذلك؟ ويعرف في ذلك الأولويات التي ينبغي البدء بها، ويحدد طريقة المعالجة، ونحو ذلك مما يعدّ من البدهيات المنهجية التي لا غنىٰ عنها.

سابعاً: تلمُّس احتياجات المخاطبين:

احتياجات الناس المنهجية والفكرية والعملية كثيرة جداً، ويتميز المصلح الجاد بقدرته علىٰ تلمُّس احتياجات الناس، وكم من الأشخاص الذين اعتادوا علىٰ مخاطبة الجماهير تراهم يشرِّقون ويغرِّبون، ويتحدثون عن أشياء كثيرة، لكنهم بعيدون عن نبض الشارع واهتمامات الناس.

ومعلوم بأن المستمع قد يقترب من المتحدث كثيراً، ويألفه في بداءة أمره، لكنه يبتعد عنه شيئاً فشيئاً إذا فقد المادة الأصيلة المتجددة التي تشبع حاجاته وطموحاته. ولا شك بأن الذي يشدُّ الجمهور ويوثق صلتهم بالمتحدث هو شعورهم بالحيوية والتجدد، وهذا ـ فيما أحسب ـ أحد المعايير الرئيسة للاستمرارية والبقاء.

ثامناً: الحذر من الاكتفاء بالخطاب العاطفي:

يغلب علىٰ كثير ممَّن يعتني بمخاطبة الجماهير اعتماد الخطاب العاطفي الذي يُبنىٰ علىٰ استثارة المشاعر، ولا شك بأن هذا مطلوب ولا غنىٰ للناس عنه، ولكنه وحده لا يكفي علىٰ الإطلاق، بل إن الاكتفاء به وحده قد يؤدي إلىٰ خلل في البناء. نَعَم قد تجمِّع العاطفة أناساً كثيرين، ولكنها وحدها لا تحيي أمة، ولا تبني رجالاً، ولا تجعلهم يثبتون أمام الأعاصير والفتن.

كثيرون أولئك الخطباء والمصلحون الذين يستطيعون تجميع الناس واستثارة

عواطفهم، ولكنَّ القلة القليلة منهم هي القادرة علىٰ إعادة بنائهم وتشكيل عقولهم وصناعتهم من جديد. وإنَّ من أكبر التحديات التي تواجه دعاة الإصلاح: هي القدرة علىٰ توظيف الطاقات، واستثمارها في البناء والعطاء، وكم هي الطاقات المهدرة التي طالما استُهلكت في التصفيق والصراخ والهتافات الساخنة أو الباردة!

ولذا كان ممَّا ينبغي لدعاة الإصلاح إدراكه أنَّ من واجبهم التأثير الفكري والمنهجي في الجماهير، ورفع مستواهم الثقافي، وإحياء الوعي في صفوفهم، وتربيتهم تربية راسخة عميقة، والانتقال بهم من مرحلة تكثير السواد إلىٰ مرحلة العطاء والوعي الإنتاجي.

يخيَّل لبعض المصلحين حينما يرىٰ أتباعه يحيطون به من كل جانب أنَّه لو دعاهم إلىٰ تحرير القدس لما تخلف منهم رجل واحد، ولخاضوا ألوان المخاطر لتحقيق هذه الغاية العظمىٰ، ولكنه يفاجأ بأنَّ كثيراً منهم سرعان ما يتخلف عنه ويتعذر بمعاذير واهية عند أول عقبة قد تواجهه في مسيرته! ولست هنا أدعو إلىٰ ترك الجماهير أو عدم الثقة بهم، ولكنني أدعو إلىٰ تغيير آلية الخطاب ليستوعب المتغيرات الاجتماعية والفكرية الحديثة.

لقد ظلت الجماهير عقوداً متتابعة مغيَّبة يعبث بعواطفها أدعياء التحرر والوطنية، وها هنا يأتي دور المصلحين من جديد لإعادة تشكيل عقولهم وصناعة أفكارهم، ولا شك بأن هذا يتطلب جهداً كبيراً ونَفَساً طويلاً.

تاسعاً: الارتقاء بمستوى الخطاب:

كثير من الطروحات التي نسمعها من الخطباء وأمثالهم تعالج هموم العامة ومشكلاتهم، وتتوافق وطموحاتهم وتطلعاتهم، ولا شك بأن هذه الطموحات

محدودة، وتدور في أطر ضيقة، وقد يغفل بعض أولئك الخطباء عن مخاطبة طبقات أخرىٰ في المجتمع، ولا بأس أن يوجد من يتخصص في مخاطبة العامة ويقصر اهتمامه علىٰ دائرتهم، ولكن ليس من المقبول علىٰ الإطلاق أن يتوجه أكثر خطبائنا إلىٰ هؤلاء ويغفلوا عن الدوائر الأخرىٰ!

إننا نعيش في عصر الانفتاح الإعلامي الذي أدىٰ إلىٰ انفتاح اجتماعي وفكري عريضين، وأصبحت قوة الخطاب وجاذبيته والتزامه بالمنهجية العلمية من أهم أدوات التأثير الفكري، وأعتقد بأن الارتقاء بمستوىٰ الطرح والمعالجة في غاية الأهمية، فما يصلح في المدرسة قد لا يصلح في الجامعة، وما يصلح في المسجد قد لا يصلح في وسائل الإعلام، وما يصلح في هذا البلد قد لا يصلح في البلد الآخر.. وهكذا. وأذكر أنني استمعت ذات يوم إلىٰ برنامج حواري اشترك فيه أحد المفكرين الإسلاميين مع مفكر ليبرالي، فآلمني جداً أن صاحبنا كان يتحدث بلغة عاطفية خطابية هزيلة، بينما كان يتحدث ذلك الليبرالي بطريقة مركزة تتسم بالذكاء والمراوغة، شعرت من خلالها أنَّه يعرف ماذا يريد. ولا شك بأن الفتنة بمثل هذا كبيرة لجمهور عريض من العامة!

عاشراً: إيجاد البرامج العملية الجادة:

من الجوانب المهمة في مخاطبة الجماهير: أن ندفعهم إلىٰ برامج عملية مثمرة، فالتفاعل المجرد يبقىٰ أثره محدوداً، ولكن حينما يستثمر تفاعلهم في بناء المجتمع ونشر الدعوة وبذل المعروف، سوف نجد ـ بإذن الله تعالىٰ ـ طاقات كثيرة تبدع وتنفع ما كنا نتوقع منها ذلك.

حسن الاتصال بالجماهير

نجاح الداعية في تحقيق أهدافه ونشر رسالته مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقدرته على الاتصال بالناس؛ فالدعوة إلى الله ـ تعالى ـ تفاعل تبادلي بين الداعية والمدعوين.

وتنمية مهارات الاتصال للدعاة في غاية الأهمية؛ لأنها هي ـ بعون الله تعالى ـ الأداة الفاعلة للنجاح الدعوي.

ويعتمد حسن الاتصال على أمور رئيسة، من أهمها:

أولاً: القدرة على نقل المبادئ والعلوم بإتقان:

ويتطلب ذلك قدرة فائقة على ضبط المعلومات وفهمها فهماً صحيحاً، ثم ترتيبها حسب الأوْلى، ثم نقلها إلى الناس بدقة واتزان، وهذا مصداق قول النبي ﷺ: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها كما سمعها، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[١].

والحرص على ذلك يحُول ـ بإذن الله ـ دون سوء الفهم، أو تداخل العلوم. قال إبراهيم بن محمد: «كفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السمع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»[٢].

---

(١) أخرجه: أبو داود، في كتاب العلم، رقم (٣٦٦٠)، والترمذي، في كتاب العلم، رقم (٢٦٥٦). وقد رجح عبد المحسن العباد أنَّه حديث متواتر في كتابه: (دراسة حديث نضَّر الله امرأً سمع مقالتي، رواية ودراية).

(٢) مقدمة ابن خلدون، (ص ٣٥).

ثانياً: معرفة أحوال المخاطبين:

إنَّ معرفة اتجاهات الناس الفكرية، والنظم الاجتماعية السائدة بينهم، تعين على التزام الأسلوب العلمي المناسب في التواصل البنَّاء معهم، ولهذا لما أراد النبي ﷺ أن يرسل معاذاً ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. . الحديث»[١]. فعرَّفه أولاً بالبيئة التي أرسله إليها، ثم بيَّن له سبيل التواصل معهم. فالاتصال بالناس يتطلب مخاطبتهم على قدر عقولهم وفهومهم؛ ليكون ذلك أبلغ إلى التأثير فيهم، كما قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «حدّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله؟!»[٢]. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[٣].

ثالثاً: القدرة على الإقناع:

وهذه مهمة صعبة لا يتقنها كلّ أحد؛ فكم من متحدث متقن للعلوم التي يتحدث عنها، لكنَّه يُخفق في إقناع الناس بما عنده؟! وربما تجد شخصاً أقل بضاعة وأضعف فهماً، لكنه أَلْحن حجة وأحسن بياناً، وهذا المعنى أحد فوائد قول النبي ﷺ: «إنَّ من البيان لسحراً»[٤]. فالعَرْض الجيد يملك القلوب، ويؤثر في النفوس، ولهذا عرَّف بعضهم البلاغة بقوله: «إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»[٥].

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الزكاة، رقم (١٤٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، رقم (٣١/١٦).
(٢) أخرجه: البخاري معلقاً، في كتاب العلم، رقم (١٢٤).
(٣) أخرجه: مسلم في المقدمة، (١/ ١١).
(٤) أخرجه البخاري في النكاح، رقم (٥١٤٦)، وفي الطب، رقم (٥٧٦٧).
(٥) البيان والتبيين، (١/ ١٣٦)، وقال أحد الكتّاب الغربيين: «إن طريقة التعبير عن فكرة معينة لا تقل أهمية عن الفكرة نفسها». فن الاتصال، لبرت دكر، ترجمة الدكتور. عبد الرحمن الشمراني.

وإذا أردت أن تقف على أمثل درجات الإقناع وأعلاها منزلة، فاقرأ سيرة النبي ﷺ؛ فهي عامرة بالشواهد والأمثلة، ومن ذلك أنَّه لـمَّا أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم الفيء في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم حزنوا إذ لم يُصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟! وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟! وعالة فأغناكم الله بي؟!». كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟!»، قال: كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمنّ. قال: «لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم. لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشِعْباً لَسَلَكْتُ وادي الأنصار وشِعْبَها، الأنصار شعار، والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[١].

فانظر إلى عظيم حكمة النبي ﷺ، وكيف أنَّه ربَّى الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ أحسن تربية، ونقلهم من التطلع إلى فيء الدنيا وزخرفها الزائل، إلى عظيم أجر الله ـ تعالى ـ لهم ونعيمه الدائم، ولهذا جاء في بعض روايات الحديث: أن الأنصار بكوا بعد سماع كلامه ﷺ، وقالوا: رضينا برسول الله قَسَماً وحظاً[٢].

ولأهمية الإقناع في إيصال المبادئ والأفكار إلى السامعين أضحت وسائله علماً يُدرس، ووضعت له قواعد وأصول، فإذا كان التلقين المجرَّد عن البرهان قد يستسلم له طائفة من الناس، فإن طوائف أخرى كثيرة لن تقبل إلا ما تؤمن به وتطمئن إليه، وأحسب أنَّ الدعاة إلى الله أوْلى الناس بدراسة هذا العلم ومعرفة

(١) أخرجه: البخاري في المغازي، رقم (٣٩٨٥)، ومسلم في الزكاة، رقم (١٧٥٨).
(٢) سيرة ابن هشام، (٣/ ٦٧، ٧٦ ـ ٧٧)، من طريق ابن إسحاق، بإسناد حسن لذاته، انظر السيرة النبوية الصحيحة، (٢/ ٥١٤).

فنونه وطرائقه؛ فهم حَمَلَةُ رسالة عظيمة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. وسلامة المنهج الذي يحملونه ليس كافياً وحده في إقناع الناس، بل لا بد من سلامة العرض وقوة الإقناع.

رابعاً: الجاذبية الشخصية:

وهي عامل رئيس في مخاطبة الناس والتأثير فيهم، فإذا لم يحب الناسُ من يدعوهم إلى الخير ويألفوه؛ فإنهم لن يسمعوا منه أو يلتفتوا إليه.

ومن أهم مقومات الجاذبية الشخصية:

١ ـ صدق العاطفة، والحماس المعتدل للطروحات والأفكار التي يتبناها[١].

١ ـ إظهار المحبة والشفقة على الناس، حتى على المقصرين منهم؛ فالداعية الصادق همُّه أن يهتدي الناس إلى الحق، ولا يظهر الشماتة أو التشفي أو الرغبة في الانتصار.

٢ ـ حسن الخلق في تواصله مع الناس: فذلك يجعل الداعية يألف ويؤلف، والكلمة الطيبة مفتاح القلوب، وعنوان النجاح، وربّ كلمة لطيفة يسديها الداعية إلى بعض الناس لا يلقي لها بالاً تفعل فعلها في نفوسهم، وتثمر خيراً كثيراً، وما ظنك بذلك الأعرابي الذي بال في المسجد؛ فثار عليه الناس ليقعوا به، لو أنَّ رسول الله ﷺ عنَّفه وشدَّد عليه، فهل كان من الممكن أن يبقى على دين الإسلام..؟! ولكن تأمَّل موقف النبي ﷺ لمَّا غلَّب جانب الهداية على جانب الطهارة، حتى يُعلِّم الأعرابي ويفقهه في الدين، ثم انظر أثر ذلك في قلب الأعرابي عندما قال: «اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً»[٢].

---

(١) انظر: مقالاً للشيخ محمد الدويش بعنوان: (الاعتدال في الحماس للفكرة)، مجلة البيان، العدد (١٥٤).

(٢) أخرج هذا المقطع من الحديث: البخاري، في كتاب الأدب، رقم (٥٥٥١).

٣ ـ الحلم وسعة الصدر: فالإنسان المتشنج الغضوب سريع الانفعال لن يجد من المدعوين إلا النّفرة والإعراض، أما الحليم الذي يصبر على جهل الجهول وأذاه فهو الذي يفلح في تبليغ رسالته البلاغ المبين، وينجح في استمالة الناس إليه، ومن الدلائل اللطيفة على ذلك ما رواه معاوية بن الحكم ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم! فقلت: واثُكْلَ أمِّياه! ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يصمِّتونني، لكني سكت، فلمَّا صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كَهَرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن». أو كما قال رسول الله ﷺ[(١)].

خامساً: القدرة على التفاعل الإيجابي مع المدعوين:

أحسب أن كثيراً من الناس يأسرهم ويشدهم إلى قلب المتحدث تفاعله الحي معهم. وكثير من الإخفاق الدعوي الذي يعرض لبعض الدعاة من أسبابه الرئيسة قصورهم في التجاوب مع آراء الناس ومشكلاتهم، وقصورهم في إدراك ردود الأفعال بحجمها الصحيح؛ فهو لا يعرف: أَفَهِمَ السامعون مراده، وآمنوا برسالته، أم أنه يتحدث في وادٍ والناس في واد آخر..!

لقد رأينا دعاة يعتقدون أنهم أدوا الواجب وأبرؤوا الذمة بمجرَّد وقوفهم أمام الناس متحدثين، وهذّهم ما عندهم هذّاً، دون أن يُكلفوا أنفسهم عناء النظر في نتائج ذلك العمل، ومقدار احتفاء الناس به وتفاعلهم معه.

---

(١) أخرجه: مسلم، في كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، (١/ ٣٨١ـ٣٨٢).

لقد كان من هدي النبي ﷺ الحرص على كسب قلوب الناس، ولهذا قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا»[١]. ووصفت عائشة ـ رضي الله عنها ـ حديث النبي ﷺ بقولها: «كان يتكلَّم بكلام بيِّن فصل، يحفظه من جلس إليه»[٢].

إنَّ ثمة حقيقة ناصعة الوضوح يجب على الدعاة أن يستصحبوها في جميع مناشطهم الدعوية، وهي أن الساحة الحالية ساحة منافسة وسباق مع شتى التيارات الفكرية، والأقدر على تحسين أدوات الاتصال بالناس؛ هو الذي سوف يحظى ـ بلا شك ـ بقلوبهم.

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب العلم، رقم (٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٥٧)، والترمذي، في كتاب المناقب، رقم (٣٦٣٩).

الرؤية أم الحساب..؟! الخلاف شر

من المسائل المتفق عليها قديماً وحديثاً: إعذار المجتهد المخالف؛ فما زال العلماء يخالف بعضهم بعضاً في مسائل الاجتهاد، ولا يمنعهم ذلك من التواد والتحاب؛ وأقوال الأئمة في ذلك كثيرة جداً، منها:

قال يحيىٰ بن سعيد الأنصاري ـ وهو من أجلاَّء التابعين ـ: «ما برح المستفتون يُستفتَون، فيُحل هذا، ويُحرِّم هذا، فلا يرىٰ المحرِّم أنَّ المحلِّل هلك لتحليله، ولا يرىٰ المحلِّل أن المحرِّم هلك لتحريمه»[(١)].

وقال سفيان الثوري: «إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختُلف فيه وأنت ترىٰ غيره فلا تنهه»[(٢)].

وقال ابن قدامة المقدسي: «لا ينبغي لأحد أن ينكر علىٰ غيره العمل بمذهبه؛ فإنه لا إنكار علىٰ المجتهدات»[(٣)].

وقال ابن تيمية: «التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف حتىٰ يصير بعضهم يبغض بعضاً ويعاديه، ويحب بعضاً ويواليه علىٰ غير ذات الله، وحتىٰ يفضي الأمر ببعضهم إلىٰ الطعن واللعن والهمز واللمز، وببعضهم إلىٰ الاقتتال بالأيدي والسلاح، وببعضهم إلىٰ المهاجرة والمقاطعة حتىٰ لا يصلي بعضهم خلف بعض، وهذا كله من أعظم الأمور التي حرمها الله ورسوله،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، (٢/ ٩٠٣).
(٢) الفقيه والمتفقه، (٢/ ٦٩).
(٣) الآداب الشرعية، لابن مفلح الحنبلي، (١/ ١٨٦).

والاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله»[١].

وهذه المسألة علىٰ الرغم من وضوحها وجلائها واتفاق الناس عليها فإن في تطبيقها عند بعض الناس خللاً ظاهراً؛ فخلافٌ يسير في مسألة فقهية اجتهادية يسوغ فيها الخلاف يؤدي إلىٰ ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية. نسأل الله السلامة.

ومن المسائل الفقهية التي يتجدد حولها الجدل في البلاد الغربية خاصة في مثل هذه الأيام، مسألة: (إثبات دخول شهر رمضان وخروجه)؛ فمنهم من يرىٰ وجوب الاعتماد علىٰ الرؤية، ومنهم من يرىٰ الاعتماد علىٰ الحساب. والقائلون بالقول الأول يختلفون فيما بينهم علىٰ أقوال: فمنهم من يرىٰ اعتماد رؤية مكة، ومنهم من يرىٰ اعتماد رؤية أقرب بلد إسلامي، ومنهم من يرىٰ اعتماد رؤية أي بلد إسلامي...

ومثل هذا الخلاف أدىٰ في العام المنصرم في بعض المدن الأوروبية ـ مثلاً ـ إلىٰ جدل عريض، ثم تطور إلىٰ قيل وقال، ثم وصل الحال إلىٰ تراشق بالتهم عند بعضهم، وراح بعض أتباع كل فريق يستدعي خلافات أخرىٰ، ويستثير كوامن من الاختلافات القديمة..!! ووقع بعضهم فيما أشار إليه العلاَّمة القاسمي بقوله: «غريبٌ أمر المتعسفين، والغلاة الجافين، تراهم سراعاً إلىٰ التكفير والتضليل، والتفسيق والتبديع، وإن كان عند التحقيق لا أثر لشيء من ذلك إلا ما دعا إليه الحسد، أو حمل عليه الجمود وضعف العلم»[٢].

فالقائلون بالقول الأول: يرون إخوانهم قد ردوا النص الشرعي، وساروا

---

(١) خلاف الأمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة، لابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، (٣/ ١١٦).

(٢) الجرح والتعديل، للقاسمي، (ص ٣٧).

علىٰ منهاج أهل الأهواء من العقلانيين الذين لا يعظمون النصوص ولا يرعون حرمتها، وربما عظَّم بعضهم هذا الخلاف، وزعم أنه ليس خلافاً فقهياً، بل هو خلاف منهجي، وما الخلاف في هذه المسألة إلا أثر من آثاره!!

والقائلون بالقول الثاني: يرون إخوانهم قد جمدوا في فهم دلالة النص، فمقصود الشارع أن يتثبت الناس من دخول الشهر، فإذا استطاعوا معرفة دخوله بأي طريقة علمية صحيحة فثمَّ مقصود الشارع. والحساب الذي ردَّه المتقدمون من أهل العلم كابن تيمية وغيره هو الحساب الظني الذي يكثر فيه خطأ الحسابيين واختلافهم فيما بينهم، أما الحساب في هذا العصر فقد تغيرت آلياته وتطورت أدواته، وأصبحت نسبة الخطأ فيه قليلة جداً، والشرع لا يأتي بما يخالف العقل.

وأحسب أن حسم الخلاف بين الفريقين متعسر جداً إن لم يكن متعذراً؛ فمن جاء بفتوىٰ من أحد العلماء رُدَّ عليه بفتوىٰ أخرىٰ مخالفة لها من عالم آخر، وكل علم لدىٰ صاحبه أوْلىٰ بالاتباع من الآخر.

إذن ما الحل في ظل غياب الولاية الإسلامية التي تجمع الناس علىٰ رأي واحد؟!

أرى أن أمامنا خيارين:

● **الخيار الأول**: أن يأخذ كل مركز بما يرىٰ أنه الأرجح، وعلىٰ الأئمة ومديري المراكز الإسلامية والمساجد أن يتقوا الله ـ تعالىٰ ـ في الترجيح، ويبذلوا الجهد في الوصول إلىٰ الحق الذي تبرأ به الذمَّة، ويستشعروا عظم الأمانة المنوطة بأعناقهم.

ثم ينبغي لكل مركز ومسجد أن يقدِّر رأي الآخرين الذين خالفوه، ويلتمس لهم العذر، ويذبَّ عنهم، ولا يسمح بالجدل والمراء.

وهذا الرأي وإن كانت نتيجته تفريق الناس في المدينة الواحدة فإن فيه قطعاً لمادة الخلاف والتنازع، وسداً لأبواب الغيبة والنميمة، قال ابن تيمية: «. . وإن رجَّح بعض الناس بعضها [يعني: بعض الاجتهادات] ولو كان أحدهما أفضل؛ لم يجز أن يُظلم من يختار المفضول ولا يُذم ولا يُعاب بإجماع المسلمين، بل المجتهد المخطئ لا يجوز ذمه بإجماع المسلمين، ولا يجوز التفرق بذلك بين الأمة»[١].

● **الخيار الثاني وهو الأوْلى والأرجح**: أن يجتمع أهل الرأي من الأئمة ومديري المساجد والمراكز ويتدارسوا المسألة، ثم يخرجوا باتفاق موحَّد؛ ويتطلب هذا حرصاً من الجميع على ضرورة التآلف والاتفاق، والالتزام بقول النبي ﷺ: «تطاوعا ولا تختلفا»[٢]. فليس المقصود أن ينتصر المرء لرأيه، بل المقصود هو تحقيق المصلحة الشرعية؛ فمفسدة التدابر والتنابذ والتقاطع أعظم أثراً وأشد خطراً من الأخذ بأحد القولين؛ لأن غاية ما في أحدهما أنه اجتهاد مرجوح يثاب عليه صاحبه بأجر واحد، وأما الاختلاف فكما أنه يزيد من الشرخ المستشري في جسد العمل الإسلامي، ومدعاة لسخرية غير المسلمين بالمسلمين؛ فهو مخالف لمقصود الشارع الذي أمر بالتعاون على البر والتقوى، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ [**آل عمران**: ١٠٥].

أنا لا أدعو إلى المثالية وإنهاء الخلاف برمَّته؛ فهذا أمر غير واقعي على الإطلاق، ولو سلم منه أحد لسلم منه أصحاب النبي ﷺ، ولكن الذي نهى عنه علماء السلف والخلف: هو أن يتحول الخلاف إلى صراع وتصادم وشقاق. قال الإمام الشاطبي نقلاً عن بعض المفسرين: «فكل مسألة حدثت في الإسلام

(١) خلاف الأمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة، لابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (٣/ ١٢٤).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: مسلم، في كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير، (٣/ ١٣٥٩)، رقم (١٧٣٣).

فاختلف الناس فيها ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنافر والتنابز والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء، وأنها التي عنىٰ رسول الله ﷺ بتفسير الآية، وهي قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا**﴾ [**الأنعام**: ١٥٩] . . . . فيجب علىٰ كل ذي دين وعقل أن يجتنبها، ودليل ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [**آل عمران**: ١٠٣]، فإذا اختلفوا وتقاطعوا كان ذلك لحدثٍ أحدثوه من اتباع الهوىٰ. هذا ما قالوه، وهو ظاهر في أن الإسلام يدعو إلىٰ الألفة والتحاب والتراحم والتعاطف؛ فكل رأي أدىٰ إلىٰ خلاف ذلك فخارج عن الدين»[١].

وها هنا مسألة جديرة بالاهتمام: فإذا آمنا بأن مسألة (إثبات دخول الشهر وخروجه) مسألة خلافية يسع فيها الاجتهاد، فهل يصح للإنسان أن يترك الرأي الراجح الذي يراه، ويأخذ بالرأي المرجوح، من أجل توحيد الكلمة وتأليف القلوب وتجميع الصفوف ودرء النزاع والتدابر؟! أو أن ذلك من التفريط والتمييع والتساهل والاجتماع علىٰ أرض هشة؟!

والحق الذي لاريب فيه أنَّ مصلحة الاجتماع والائتلاف أوْلىٰ، وترك الرأي الراجح تحقيقاً لهذه المصلحة ممَّا دلَّ عليه الشرع المطهر، وإذا تعارضت المصالح، فتحصيل المصلحة الأعلىٰ مقدم علىٰ المصلحة الأدنىٰ، كما هو مقرر في علم الأصول، قال ابن تيمية: «. . ولا يجوز أن تجعل المستحبات بمنزلة الواجبات يمتنع الرجل من تركها ويرىٰ أنه قد خرج من دينه أو عصىٰ الله ورسوله، بل قد يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضل من فعلها، بل الواجبات كذلك.

---

(١) الموافقات، (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

ومعلوم أن ائتلاف قلوب الأمة أعظم في الدين من بعض هذه المستحبات، فلو تركها المرء لائتلاف القلوب كان ذلك حسناً، وذلك أفضل إذا كان مصلحة ائتلاف القلوب دون مصلحة ذلك المستحب، وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما: عن عائشة أنَّ النبي ﷺ قال لها: (لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة ولألصقتها بالأرض، ولجعلت لها باباً يدخل الناس منه وباباً يخرجون منه)[١]. وقد احتج بهذا الحديث البخاري وغيره على أن الإمام قد يترك بعض الأمور المختارة لأجل تأليف القلوب ودفعاً لنفرتها، ولهذا نص الإمام أحمد على أنه يجهر بالبسملة عند المعارض الراجح، فقال: يجهر بها إذا كان بالمدينة. قال القاضي: لأن أهلها إذ ذاك كانوا يجهرون، فيجهر بها للتأليف وليعلمهم أنه يقرأ بها، وأن قراءتها سنة، كما جهر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة»[٢].

إذن فالمسألة تحتاج إلى فقه رشيد يتسع فيه الصدر، ويسمو فيه المرء عن أهوائه؛ فليس الفقيه هو الذي يتعصب لرأيه، أو يشدّد على الناس، وقديماً قال الثوري: «إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد»[٣].

وكأني بقائل قد يقول: إننا ـ معاشر أهل الحق ـ إذا تنازلنا عن رأينا في مسألة فقهية اجتهادية من أجل اجتماع الصف؛ قادنا ذلك إلى التنازل في مسائل منهجية وعقيدية أخرى فيكثر الخلط، وتتميع الصفوف. . !

---

(١) أخرجه: البخاري، كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، (١/ ٢٢٤)، رقم (١٢٦)، وفي كتاب الحج، رقم (١٥٨٣ ـ ١٥٨٦). ومسلم، في كتاب العلم، باب نقض الكعبة وبنائها، (٢/ ٩٦٨ ـ ٩٧٣)، رقم (١٣٣٣).

(٢) خلاف الأمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة، لابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (٣/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، (١٠/ ٧٨٤).

وهذا تحفُّظ مردود؛ لأنَّ التنازل في مسائل منهجية وعقيدية انحراف غير سائغ، وهو مخالف للسبيل الشرعي الذي سلكه سلفنا الصالح، ولكن الذي ندعو إليه هو التحاور والتطاوع في مسائل اجتهادية يسع فيها الخلاف تحقيقاً لمصلحة أعظم نفعاً بإذن الله، ومراعاة لقاعدة تعد من أعظم قواعد الإسلام وأصوله، وهي: الاعتصام بحبل الله ـ تعالىٰ ـ، وترك التفرق والاختلاف المذموم، وها هو ذا عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يترك رأيه بقصر الصلاة في الحج ويأخذ بفعل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ لـمَّا رأىٰ الإتمام؛ فلـمَّا سُئل عن ذلك قال: «الخلاف شر»[1]، وفي رواية: «إني أكره الخلاف»[2]. فهذا خلاف في مسألة متعلقة بركن مقدَّم علىٰ الصوم، وقعت في ذاته لا في زمانه، ومع ذلك فقد تطاوع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يختلفوا، فللّه دَرُّهُمْ! وما أحوجنا للاهتداء بهديهم.

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الحق، وأعذهم من نزعات الأهواء.

---

(١) أخرجه: أبو داود، كتاب المناسك، الصلاة بمنىٰ، (٢/ ١٩٩)، رقم (١٩٦٠).

(٢) أخرجه: البيهقي، كتاب الصلاة، باب من ترك القصر في السفر غير رغبة عن السنة، (٣/ ١٤٤). والحديث أصله في صحيح البخاري، كتاب تقصير الصلاة، باب الصلاة بمنىٰ، (٢/ ٥٦٣)، رقم (١٠٨٤).

من لهؤلاء..؟!

كان يأتي إلىٰ المسجد الوحيد في المدينة من مكان بعيد جداً لأداء صلاة الفجر، وعلىٰ الرغم من الخطورة الأمنية التي تمنع كثيراً من الناس من الحركة في هذه الساعة المبكرة من اليوم، فقد كان حريصاً أشد الحرص علىٰ ذلك، وسمعته يقول: منذ أن قرأت قول النبي ﷺ: «بشّر المشائين في الظلم إلىٰ المساجد بالنور التام يوم القيامة»، وأنا حريص علىٰ أن أكون من أهل هذا الحديث ـ إن شاء الله ـ.

سألته: ما الذي دعاك إلى الإسلام..؟!

فقال: ولدت في جزيرة صغيرة في البحر الكاريبي لأب مسلم وأمٍّ نصرانية، كنت أرىٰ أبي يؤذّن في البيت ويصلي، ولكني ما كنت أعرف ماذا يفعل، فقد توفي وعمري سبع سنين، كل الذي أدريه أنه أسرّ إليّ في مرض وفاته قائلاً: (أنت مسلم يا ولدي.. إياك أن تذهب إلىٰ الكنيسة مع أمك.. أنت مسلم، أليس كذلك؟!) ثم فارق الحياة..

نسيت وصية أبي.. أو قل: لم أكن أفهمها. وذهبت إلىٰ الكنيسة، فقد كانت أمي كاثوليكية متدينة، وما كنت أقتنع بكثير مما أسمعه أو أراه.. فلمَّا كبرت كنت أتفلت من قيود الكنيسة، واشتغلت بالتجارة، فانفتحت عليّ الدنيا، فازدادت غفلتي وبُعدي عن التفكير في الأديان جميعها.

حتىٰ جاء اليوم الذي سافرت فيه إلىٰ جزيرة (جاميكا) لغرض التجارة، كنت أسير في أحد شوارع العاصمة، وفجأة.. سمعت صوتاً رخيماً متخشعاً ينادي بالأذان، ما كنت أعرف ماذا يقول، ولكني تذكرت أذان والدي، تذكرته وهو

يشدني على صدره، والدموع تملأ عينيه، ويقول لي: (أنت مسلم.. أليس كذلك؟!) وكأنه يستعطفني أو يستجديني، أحسست برعدة شديدة تسري في جسدي، لا أدري لماذا اقترن عندي الإسلام بالأذان، فما كنت أعرف عنهما شيئاً. وأخذت أرتجف، حتى انفجرت بالبكاء.. مشاعر كثيرة اختلطت في ذهني، وكأني وجدت شيئاً عزيزاً على نفسي طالما افتقدته. بكيت، وما كنت أبالي بنظرات المارة..

ذهبت أبحث عن مصدر الصوت، حتى دلوني على المسجد، فوجدت المؤذن رجلاً كبيراً أميّاً لا يعرف شيئاً كثيراً عن الإسلام، فعاجلته بالسؤال بعد السؤال، لكنه لم يشف غليلي، وإنما دلني على مكتبة المسجد، فما وجدت شيئاً أقرؤه إلا ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية. فأخذت أقرأ بنهم شديد، حتى وقفت على قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [**المائدة**: ٧٣]، فأحسست بهزة عنيفة أيقظتني من سبات عميق، وما بتّ تلك الليلة إلا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

تأملت هذه القصة، ثم رجعت إلى نفسي، وقلت: كم هم أولئك الحيارى الذين يتخبطون في ظلمات الجاهلية شرقاً وغرباً، بل وفي ديار الإسلام، ومنهم من كانت أمهاتهم غير مسلمات ومع ذلك لم نحسن عرض الإسلام لهم بصفائه ونقائه ومحاسنه العظيمة؛ على الرغم من التقنيات الهائلة التي تميز بها هذا العصر، حتى إن (القرآن العظيم) لم تتيسر لنا ترجمة معانيه ترجمة سليمة خالية من الأخطاء المنهجية واللغوية إلى اللغات الحية فضلاً عن اللغات الأخرى.

إنّ البشرية.. كل البشرية متعطشة إلى هذا القرآن العظيم لينقذها من حيرتها وتخبطها، وإنّه أمانة عظيمة، فهل نعي هذا..؟!

حينما عرفت قدري!

حدثني صاحبي قائلاً: كنت في رحلة دعوية إلىٰ الحدود البرية بين دولتي السنغال وموريتانيا؛ حيث يوجد عدد كبير من اللاجئين النازحين من موريتانيا. كان الطريق وعراً موحشاً أصابنا فيه شدة وتعب، قطعنا فيه المفازة بعد المفازة، ولا نرىٰ أمامنا إلا أمواجاً من السراب، تزيد من هَمِّ الإنسان وتطلعه إلىٰ النهاية. لا نصل إلىٰ قرية من القرىٰ المتناثرة هنا وهناك إلا نجد من يحذرنا من قُطَّاع الطرق ولصوص الصحراء. تسع ساعات مرت وكأنها لا تريد أن تنتهي، ثم يسَّر الله لنا الوصول إلىٰ مواقع اللاجئين وقد أسدل الليل ظلامه.

وجدت صاحبي قد أعدَّ لنا خيمة وضع فيها فراشاً بالياً هيأه لنومي، ولكن ما أجمله من فراش بعد أن هدَّ منا السفر ما هدّ. ألقيت بنفسي علىٰ الفراش من شدة التعب، ثم رحت أتأمل رحلتي هذه. أتدري ما الذي خطر في نفسي؟!

شعرت بشيء من الاعتزاز والفخر، بل أحسست بالعجب والاستعلاء! فمن ذا الذي سبقني إلىٰ هذا المكان؟! ومن ذا الذي يصنع ما صنعت؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يتحمل هذه المتاعب؟! وما زال الشيطان ينفخ في قلبي حتىٰ كدت أتيه كبراً وغروراً ـ والعياذ بالله ـ إلا أن الله رحمني فنامت عيني، ورحت أغط في سبات عميق.

خرجنا في الصباح الباكر نتجول في أنحاء المنطقة، حتىٰ وصلنا إلىٰ بئر يبعد كيلو متراً واحداً تقريباً عن منازل اللاجئين يروي منه الناس ويستقون، فرأيت مجموعة من النساء يحملن علىٰ رؤوسهن قدور الماء، ولفت انتباهي امرأة بيضاء من بين هؤلاء النسوة، كنت أظنها ـ بادي الرأي ـ واحدة من نساء

اللاجئين مصابة بالجذام المنتشر بين بعض الناس هناك، لكني فوجئت بأنها منصِّرة: شابة في الثلاثينيات من عمرها من أقاصي شمال أوروبا، من النرويج!!

قال لي مرافقي: منذ ستة أشهر وهي مع نسائنا، تلبس لباسنا، وتأكل طعامنا، وترافقنا في أعمالنا، جاءت إلينا وهي تعرف لغتنا القبلية وبعض عاداتنا. في بعض نهارها تداوي المرضىٰ من النساء والأطفال، ومعها صاحبتها تعلمهن الخياطة وبعض الأعمال اليدوية، وفي أول الليل تجتمع بعض الفتيات يتجاذبن معها أطراف الحديث، وتعلمهن قواعد القراءة والكتابة، وقد خصصت لهن بعض الليالي لتعليم الرقص. أحبها الناس كباراً وصغاراً لتواضعها وخدماتها التي لا تنقطع؛ فكم من يتيم مسحت علىٰ رأسه! وكم من مريض خففت من ألمه!

عجبت ـ والله ـ أشد العجب من هذه المرأة، فما الذي دعاها إلىٰ هذه القفار النائية وهي علىٰ ضلالها؟! وما الذي دفعها لتترك حضارة أوروبا ومروجها الخضراء؟! وما الذي قوَّىٰ عزمها على البقاء مع هؤلاء العجزة المحاويج وهي في قمة شبابها؟!

تسابقت هذه الأسئلة إلىٰ خاطري، ثم تذكرت ما كنت أفكر فيه ليلتي السابقة، لقد شعرتُ بالتعاظم والعُجْب لليلة واحدة قضيتها في هذا المكان، أما الآن ـ وبعد أن رأيت هذه المنصِّرة ـ تصاغرت نفسي، وأحسست بمهانتي وضعفي؛ فهذه المنصِّرة المضلِّلة تقدِّم كل هذا العمل بكل جَلَدٍ وصبر، وهي علىٰ الباطل، وأما أنا فسرعان ما انتفشتُ لعمل يسيرٍ لا أدري: أيكتب في الصالحين أم لا!! ولا أقول هذا إعجاباً بهذه المرأة، أو أنها في محل القدوة ـ عياذاً بالله ـ لكني أعجب كيف يصبر هؤلاء القوم علىٰ نشر باطلهم، ويعجز بعضنا، أو تصيبه السآمة والملل في أول الطريق!

لقد هزني هذا الموقف هزاً عظيماً، ورأيت كم يضحي هؤلاء الضُّلاَّل لنشر ضلالهم، وأيقنت بأننا - معاشرَ الدعاة - أحوج ما نكون إلى الإخلاص والاحتساب، أحوج ما نكون إلى البذل والتضحية، وبقدر انتصارنا على أنفسنا وإحساسنا بمسؤوليتنا الدعوية، فإن الله - تعالى - سيبارك في أعمالنا. قال الله - تعالى -: ﴿**إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**﴾ [**النساء**: ١٠٤].

ويبقى العود ما بقي اللحاء

كنت في رحلة دعوية إلىٰ بنجلاديش مع فريق طبي أقام مخيماً لعلاج أمراض العيون، فتقدّم إلىٰ الطبيب شيخٌ وقور ومعه زوجته بتردد وارتباك، ولمّا أراد الطبيب المعالج أن يقترب منها فإذا بها تبكي وترتجف من الخوف، فظنّ الطبيب أنها تتألم من المرض، فسأل زوجها عن ذلك، فقال ـ وهو يغالب دموعه ـ: إنها لا تبكي من الألم. . بل تبكي لأنها ستضطر أن تكشف وجهها لرجل أجنبي! لم تنم ليلة البارحة من القلق والارتباك، وكانت تعاتبني كثيراً: أوَ ترضىٰ لي أن أكشف وجهي. . ؟! ومـا قَبلَتْ أن تأتي للعلاج إلا بعد أن أقسمتُ لها أيماناً مغلظة بأنّ الله ـ تعالىٰ ـ أباح لها ذلك عند الاضطرار، والله ـ تعالىٰ ـ يقول: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

[**البقرة**: ١٧٣].

فلمّا اقترب منها الطبيب، نفرت منه، ثم قالت: هل أنت مسلم؟

قال: نعم، والحمد لله!!

قالت: إن كنت مسلماً. . إن كنت مسلماً. . فأسألك بالله ألاّ تهتك ستري، إلا إذا كنت تعلم يقيناً أن الله أباح لك ذلك. . !!

أُجريت لها العملية بنجاح وأزيل الماء الأبيض، وعاد إليها بصرها بفضل الله ـ تعالىٰ ـ. حدّث عنها زوجها أنها قالت: لولا اثنتان لأحببت أن أصبر علىٰ حالي ولا يمسني رجل أجنبي: قراءة القرآن، وخدمتي لك ولأولادك.

ما أعظم شموخ المرأة المسلمة بعزتها وعفافها. . ! وما أجمل أن تُرىٰ المرأة مصونة فخورة بحشمتها. . !

أكرم به من إيمان يتجلّى في صورة عملية صادقة بعيدة عن التكلف أو التنطع، سالمة من الرياء وشوائب الهوىٰ.. !

فأين أولئك النساء اللواتي كسرن طوق الحياء، وأسلمن أنفسهن لدعاة الرذيلة وأدعياء المدنية، وأصبحن يلهثن وراء شهواتهن، ويتبارين في التفسخ والانحلال.. أين هن من تلك المرأة العفيفة الطاهرة؟!

ولَكَم يتفطر القلب أسىً وحزناً علىٰ أولئك الفتيات الزهراوات اللواتي طاشت بهن الأهواء، وأسلمن أنفسهن بكل غفلة وبلاهة لكل ناعق..؟!

إنّ الحياء شعبة من شعب الإيمان، وعنوان من عناوين العفة والفضيلة، تقوم قواعده علىٰ أُسس راسخة من التقىٰ، وأصول متينة من الصلاح، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الحياء كله خير»[1]. بل عظّم النبي ﷺ من شأنه فقال: «إن لكل دين خُلُقاً، وخُلُق الإسلام الحياء»[2].

ويتأكّد ذلك في حق المرأة، فسترِها رمز حيائها، وحجابُها دليل كرامتها. وإذا اختلّ حياء المرأة تزلزلت قدماها، وعصفت بها الفتن، وأصبحت سلعة رخيصة تباع بأبخس الأثمان، ويعبث بها دهاقنة الفساد، وأئمة الهوىٰ، (وليس لمن سُلِبَ الحياءَ صادّ عن قبيح، ولا زاجر عن محظور؛ فهو يُقدم علىٰ ما يشاء، ويأتي ما يهوىٰ)[3].

وقديماً قال الشاعر:

فلا واللهِ مَا في العَيْش خيرٌ ... ولا الدنيا إذا ذَهَب الحياءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العُودُ ما بقي اللحاءُ

---

(١) أخرجه: مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، (١/ ٦٤)، رقم (٣٧).
(٢) أخرجه: ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحياء، (٢/ ١٣٩٩)، رقم (٤١٨١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.
(٣) أدب الدنيا والدين، (ص ٢٤١).

بداية النهاية

الإحباط داء من الأدواء المهلكة التي قد تعرض لبعض السالكين في طريقهم؛ فهو يرىٰ انتفاش الباطل، وعلوَّ سلطانه، وامتداد تأثيره. يلتفت يمنة ويسرة فيجد أعداء الله ـ تعالىٰ ـ يمكرون الليل والنهار بإمكانات مادية وتقنية بشرية هائلة، ثم يشعر جازماً بأنَّ الأحداث والوقائع إنما تجري بتخطيط محكم، ودراسة متقنة، وأنَّ الناس ما هم إلا دُمىٰ يعبث بها صنَّاع القرار من أهل الباطل، أو مجرد أحجار علىٰ رقعة الشطرنج يتداول تحريكها وإسقاطها المتنافسون علىٰ القصعة المستضعفة المهينة..!!

يرىٰ ذلك كله، ثم يرىٰ في الجهة الأخرىٰ أنَّ الحق مهيض الجناح، ضعيف السلطان، لا شوكة له ولا ظهر، كما يرىٰ أن السنوات الطويلة التي قضاها في الدعوة أو التعليم أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الجهاد في سبيل الله لم تُؤتِ ثمارها كما يجب، بل قد تتوالىٰ عليه الفتن، وتضيق عليه الدائرة، وربما رأىٰ من أمراض الصحوة الإسلامية ما يزيد من الفتِّ في عضده، والتقليل من همَّته وعزيمته..!

والنتيجة الحتمية لهذه الحالة المتقدمة من الإحباط هي اليأس والاستسلام، ثم القعود والركون إلىٰ الدنيا، أو ـ في أحسن الأحوال ـ الانكفاء علىٰ الذات والاعتزال.

والإحباط هو مبتدأ السقوط والنهاية، وهو آية من آيات ضعف الإيمان، وضعف الثقة بالله ـ تعالىٰ ـ والاعتماد عليه. وأمَّا أهل الإيمان الراسخ فإن ثقتهم بالله ـ تعالىٰ ـ عظيمة، وتوكلهم عليه كبير، لا يزالون معتصمين بحبل الله

المتين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله. وهذا الطريق المبارك لا يتحمل لأواءه ونصبه إلا المتفائلون المطمئنون بمعية الله ـ تعالىٰ ـ لهم.

إنَّ الإيمان بمعية الله ـ تعالىٰ ـ للمؤمنين من أعظم عناصر القوة، والمؤمن الحق لا يعرف اليأس، ولا يستسلم لأحابيل الشيطان وتخذيله. وقوة الباطل وانتفاشه قوة دافعة لأهل الإيمان تدفعهم لمواجهته، والصبر في مدافعته. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ [**آل عمران**: ١٧٣]. وقال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٤٦].

وانظر إلىٰ سِيَر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ تراهم أعظم الناس ثقة بالله ـ تعالىٰ ـ علىٰ الرغم من الإعراض الذي يواجَهون به، بل والأذىٰ والاستهزاء والحرب؛ فها هو ذا نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين بكل ثبات وصبر، ولم يفُتَّ في عضده أنَّ من آمن به قلة قليلة جداً من الناس، ولم يحبطه أن يكون أعز الناس إليه ممَّن كفروا بالله ـ تعالىٰ ـ. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا** ۝٥ **فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا** ۝٦ **وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا** ۝٧ **ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا** ۝٨ **ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** ۝٩ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**﴾ [**نوح**: ٥ – ١٠].

ومن عجائب الثقة بالله ـ تعالىٰ ـ ما نراه في سيرة خاتم الأنبياء ﷺ؛ ففي المدينة لـمَّا تألب عليه الأحزاب في غزوة الخندق، ورمته العرب عن قوس واحدة، وأصاب الناس بأس وشدة، وزُلزلوا زلزالاً شديداً كان النبي ﷺ يربي أصحابه علىٰ الثقة بالله، والاطمئنان بالنصر العاجل والآجل، والتصديق بموعود

الله الذي وعدهم؛ فعندما عرضت صخرة للصحابة وهم يحفرون الخندق أخذ رسول الله ﷺ المِعْوَل وقال: «باسم الله»، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأُبصر قصورها الحمر من مكاني هذا». ثم قال: «باسم الله»، وضرب أخرىٰ، فكسر ثلث الحجر، فقال: «الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأُبصر المدائن، وأُبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا». ثم قال: «باسم الله»، وضرب ضربة أخرىٰ، فقلع بقية الحجر، فقال: «الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأُبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»[1].

والعجيب أنَّ الناس انقسموا إزاء هذا الوعد فريقين: فقد حكىٰ الله عن المنافقين قولهم: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا**﴾ [**الأحزاب**: ١٢]. وأما المؤمنون فقد جاء وصف حالهم بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾ [**الأحزاب**: ٢٢]. موقفان متقابلان: موقف المريض الهزيل، وموقف المطمئن الراسخ في تصديقه، الثابت علىٰ دينه، الذي لا تهزُّه الأعاصير، ولا تضعفه المحن.. وشتان ما بين الموقفين.

نعم.. تربىٰ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ علىٰ الشموخ والأنفة! ففي غزوة أُحُد لـمَّا انكسر المسلمون، وقُتِلَ من أَجِلَّة الصحابة من قُتل تنزَّل القرآن الكريم ليؤكد حقيقة في غاية الأهمية؛ وهي أن الإنسان المؤمن يشعر بالعزة والرفعة والعلو دائماً، ولا يتطرق الوهن أو اليأس إلىٰ قلبه، حتىٰ في حال الانكسار. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٣٩].

---

(١) أخرجه: أحمد في المسند، (٣٠/ ٦٢٦)، رقم (١٨٦٩٤)، وضعف إسناده المحقق، ولكن حسنه ابن حجر في الفتح، (٧/ ٣٩٧).

إنَّ الإحباط لا يعرف طريقه إلى القلوب المطمئنة بذكر الله ـ تعالى ـ بل هي شامخة بإيمانها، معتزة بدينها، قادرة على مواجهة الأمم كلها مهما بلغ سلطانها وبلغت قوتها. أمَّا أصحاب النفوس الضعيفة التي عبث بها اليأس، وعمرها القنوط فإنها تخاف من ظلها، ويحوطها الفشل والإحباط من كل جانب.. نسأل الله السلامة.

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [**الأعراف**: ١٢٦].

نحن والغرب

علاقة الأمة الإسلامية بالحضارة الغربية المعاصرة لها جذور تاريخية عريقة ممتدة منذ فجر الإسلام، وقد أخذ الصراع بين الأمتين في هذا العصر مناحي ومجالات متعددة.

وتواجه الأمة الإسلامية تحدياً حضارياً وعقدياً كبيراً؛ فالحضارة الغربية امتدت بأذرعها المختلفة ساعية لابتلاع الأمم والحضارات الأخرىٰ، وتدمير البنىٰ الثقافية والفكرية والاجتماعية كافة، وانطلقت بطوفان جارف من التغريب يتخطف كل الشعوب والأمم التي أصبح كثير منها يركع إثر انهيار مقاومته الفكرية..!

ولكن هل استطعنا أن نفهم الغرب حقاً وندرك كيف يفكر؟! وكيف ينظر إلينا؟ وهل استطعنا أن نفهم الواقع الغربي فهماً حقيقياً، ونحلل مواطن القوة والضعف فيه؟!

إن الشجب والذم المطلق هو الأسلوب الوحيد والدائم ـ عند طائفة من الناس ـ في فهم الغرب والتفاهم معه؛ فهم لا ينظرون إلىٰ الواقع الغربي مثلاً إلا من خلال التصدع الاجتماعي وغياب دور الأسرة، وانتشار المخدرات، والشذوذ والإيدز والأمراض الجنسية!

حتىٰ في هذا الجانب ربما تطغىٰ السطحية في تلمُّس السلبيات والأمراض التي يعاني منها الغرب؛ فقد يغفل الكثيرون عن الطبقية الاقتصادية الضاربة بأطنابها في أعماق الغرب، والتي ولَّدت الظلم الاجتماعي، واستغلال الرأسماليين لحقوق العامة والطبقات المستضعفة، وقد يغفل الكثيرون عن الديون الهائلة التي تُثقل كاهل الخزانة الأمريكية والبالغة أكثر من ثلاثة تريليونات دولار.

كما يغفل بعضنا عن التنافر العرقي الذي يطغىٰ علىٰ التركيبة السكانية في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، وينذر بانفجار يصدِّع أركانها. ويغفل آخرون عن الهُلامية الديمقراطية التي يغلِّف الغرب بها نفسه بأغلفة برَّاقة، وفي داخلها من التصدُّع ما الله به عليم؛ فصُنَّاع الرأي وأباطرة الإعلام هم الذين يشكِّلون العقول، ويصنعون القناعات والمواقف، ويوجهون الرأي العام من حيث يشعر أو لا يشعر. . . إلىٰ أمثلة كثيرة من الأمراض الغربية التي تنخر بناءه الحضاري من الداخل.

وفي المقابل فإن الاغترار والإعجاب المطلق هو الأسلوب الوحيد ـ عند طائفة أخرىٰ من الناس ـ في فَهْم الغرب ودراسة حضارته؛ فهُم لا يرون في الغرب إلا تقدُّمَه التقني والتجريبي في العلوم التطبيقية كلها، ويغفلون عن جوانب أخرىٰ إيجابية تستحق الرصد والمتابعة لاستثمارها والاستفادة منها، مثل:

ـ تأسيس قواعده الحضارية ـ من حيث الجملة ـ علىٰ أسس علمية بعيدة عن المحاباة أو المجاملة، والتزامه بالعقلية المؤسسية التي لا ترتبط ارتباطاً تاماً بالأفراد؛ بل تعتمد علىٰ الأنظمة والسياسات العامة.

ـ ومثل: سيادة الدستور والقانون ـ بغضِّ النظر عن صحة ذلك القانون أو الدستور ـ علىٰ الجوانب الحياتية بأجمعها، والتزام كل الطبقات السياسية والفكرية والاجتماعية به.

ـ ومثل: الالتزام بالقواعد الإدارية والأصول التنظيمية التي تحكم كل المناشط الحياتية. . . إلىٰ جوانب أخرىٰ عديدة من جوانب التقدم والتفوق.

وهذان الأسلوبان السطحيان المتباينان سيؤديان حتماً إلىٰ خلل وقصور واضطراب في الفهم؛ لأن كلتا الطائفتين ستبقيان مطوقتين بهذه الرؤية الجزئية المحدودة.

إن فهم الواقع الغربي ورؤيته برؤية عميقة ناضجة من الداخل باب رئيس من أبواب المواجهة القادمة معه، بل من أبواب التغيير في واقعنا إذا أخذنا في الاعتبار تأثر كثير من المتنفذين في بلادنا الإسلامية بالغرب. ولن نستطيع مدافعة الغرب ومنازلته ثم اختراقه ما لم نقرأ واقعه قراءة شاملة ودقيقة وأمينة، وما لم نتعرف عليه التعرف الصحيح الذي يضع الأمور في نصابها وحجمها الصحيح؛ وإنه لمن الخطر البالغ أن ننظر إلىٰ الواقع الغربي ببدائية تفتقر إلىٰ أيسر الأسس العلمية في المواجهة والمدافعة، ونحن نقرأ قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [**الأنعام**: ٥٥].

وإصلاح الوضع الداخلي للأمة الإسلامية لن يكون بمعزل عن تفهُّم الواقع العالمي بكل أبعاده؛ فقد تداخلت الحضارات، وتشابكت الأمم، وأصبحنا نعيش وضعاً كونياً جديداً لم يمر مثله علىٰ الناس في العقود الماضية.

وتفهُّم الواقع الغربي خصوصاً، والواقع العالمي عموماً لن يحيط به رجل واحد من خلال زيارة عابرة لبعض الدول، بل يتطلب رصداً دقيقاً لمنطلقات الغرب وأهدافه والمؤثرات فيه، ويتطلب رصداً لتطور كل الوقائع والمتغيرات، وهذا بالطبع لن يكون إلا من خلال جهود متكاملة لعدد من المهتمين والمتخصصين، للتحليل والدراسة واستشراف آفاق المستقبل، وتوظيف شبكات الاتصال والمعلومات في تحقيق المصالح الإسلامية.

إننا في حاجة إلىٰ مراكز علمية متخصصة في هذا الشأن، لكن المشكلة أن كثيراً من الناس ـ حتىٰ من بعض النخب الدعوية ـ ربما لا يحفل بمثل هذا العمل؛ لأنهم تعوَّدوا علىٰ العناية بالنشاط العاطفي، والتقليل من شأن النشاط الفكري، وغلَّبوا النظر إلىٰ النتائج العاجلة القريبة علىٰ النتائج الآجلة البعيدة؛ علىٰ الرغم من التلازم الوثيق بين الأمرين.

المسلمون في بلاد الغرب

تجولت في بعض الدول الأوروبية والولايات الأمريكية، والتقيت عدداً كبيراً من الجاليات الإسلامية، ووجدت في المدن الكبيرة خاصة أن هذا المسجد للباكستانيين، وذلك للمصريين، وثالث للخليجيين، ورابع للمغاربة . . . وهكذا، والعجب أن المسلمين انتقلوا من ديارهم إلىٰ ديار الغرب بقضهم وقضيضهم، انتقلوا محمَّلين بكل الأدواء التي تعيشها بلادهم، وما زاد الغرب كثيراً منهم إلا استلاباً وتفلتاً. ووجود هذه الشرائح كلها مجتمعة في مدينة واحدة تعطيك صورة حية للواقع الإسلامي الذي تعيشه الشعوب، بما فيه من الجهل والتشتت والعنصرية والأثرة . . !!

انتقل خطوة أخرىٰ داخل صفوف الصحوة الإسلامية، تجد أن هذا المركز لفصيل كذا، وذلك المركز لمجموعة كذا . . . وهكذا. وإذا قُدِّر أنهم اجتمعوا في مسجد واحد ـ اضطراراً ـ فحدِّث عن الصراع والتنابذ ولا حرج. وتزداد حدة الخلاف ـ خاصة ـ عند تباين وجهات النظر إزاء المواقف السياسية في البلاد العربية والإسلامية . . !

والطريف أن كثيراً من المساجد ـ تأثراً بالجو الديمقراطي السائد ـ تقيم انتخابات ديمقراطية لإمارة المسجد ولجانه المختلفة، ولكن عقلية داحس والغبراء، وعقلية عساكر الجيوش الثورية، تفرض نفسها علىٰ سَيْر الانتخابات . . !!

كم تأسفت وحزنت كثيراً علىٰ هذا الوضع. أإلىٰ هذا الحد يصل مستوىٰ بعض رجالات الحركة الإسلامية؟ كم تأسفت عندما علمت أن طريقة الحوار السائدة حتىٰ في أيسر المسائل الفقهية الاجتهادية، هي الطريقة العنترية التي

تُستعرض فيها العضلات وتنتفخ فيها الأوداج، ويصبح معيار الحق هو الولاء لفلان أو فلان، والأبلغ حجة هو الأعلىٰ صوتاً والأكثر صخباً. . !!

كم تأسفت عندما رأيت أن علائق الأخوة والمحبة والولاء تهتز عند كل خلاف مهما كان سائغاً، ثم تتحول الصلة إلىٰ تهمة وغيبة ونميمة، والعقلاء منهم ـ إلا من رحم الله ـ يتبادلون الابتسامات الصفراء الباهتة التي سرعان ما تتحول إلىٰ عبوس وشزر. . !!

كم هو محزن أن تستنفد طاقات الشببة المسلمين في قيل وقال وسجالات كلامية تعوقهم عن البناء والعطاء. . ؟!

يدخل الطبيب أو المهندس أو الفيزيائي إلىٰ المختبر فيلبس العقلية المنهجية التي تعتمد علىٰ التجربة وبناء النتائج علىٰ الحجة والبرهان، ولا يقبل أي ظاهرة علمية إلا بعد أن يعززها بالأدلة الكافية لإثبات صحتها أو رجحانها علىٰ الأقل. . ولكنه سرعان ما ينزع عنه هذه العقلية حينما يرجع إلىٰ المركز الإسلامي ويلبس العقلية العنصرية أو الحزبية التي تعتمد علىٰ الأثرة وضيق الأفق والتقليد الأعمىٰ. . !!

ألا ترون أنَّ السبب الرئيس لمثل هذا التهارش هو ما جاء في قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [**المائدة**: ١٤].

رياح الغـرب

من المسلَّمات التربوية التي يتفق عليها العقلاء جميعهم أن البيئة الاجتماعية لها تأثير بالغ في صياغة فكر الإنسان وبنائه الاجتماعي والسلوكي، ولهذا تواترت النصوص الشرعية في الحث علىٰ إيجاد البيئة الصالحة التي تعين المرء علىٰ الطاعات، وتشجعه علىٰ فعل الصالحات. ولعل من أعقد المشكلات التي يعاني منها المهاجرون أو الدارسون في بلاد الغرب هي مشكلة التربية، ابتداءً بتربية النفس، ومروراً بتربية الأسرة والأبناء، وخاصة المراهقين منهم. ولم أستغرب حينما رأيت من المسلمين المقيمين في بلاد الغرب من يذوبون في المجتمع الغربي، وينسلخون من هويتهم الشرعية وجذورهم التاريخية، خاصة الجيل الجديد الذي وُلد ونشأ هناك، فكل شيء من حولهم يدعو إلىٰ الانفلات الفكري والاجتماعي. ولكني حزنت أشد الحزن حينما رأيت بعض أبناء الصحوة الإسلامية ودعاتها يتساهلون في كثير من المسائل الشرعية، ويتفلتون من كثير من الالتزامات والقيود الإسلامية، بل إن بعضهم ـ مع الأسف الشديد ـ قد اعتاد علىٰ ذلك، واستمرأ الوقوع في بعض المنهيات، وهان عليه أن يقع في بعض المنكرات. وربما سوّغ بعضهم لنفسه شيئاً من ذلك، واعتسف المعاذير التي تزيد من غفلته ولهوه، وربما بالغ بعضهم وعدَّ ذلك لوناً من ألوان المرونة الدعوية. بل بلغني أن بعضهم قد يتضاحك ممن يحرص علىٰ التمسك بالسنَّة والدعوة إليها، خاصة إذا كان حديث عهد ببلاد الغرب!

لقد خبرتُ شباباً يتدفق حيوية وحماساً في مجال الدعوة، حريصاً علىٰ تتبع سنن الهدىٰ، قوياً في الطاعات والأخذ بعزائم الأمور، ثم طارت بهم رياح

الغرب، واستهلكتهم رؤية ألوان المنكرات ليلاً ونهاراً، فأصابتهم برشاشها، وشابتهم ببعض شوائبها، وظهرت آثار ذلك في الهدي الظاهر ابتداءً، ثم لمسنا التفلت التدريجي من تبني بعض الأعمال الدعوية، وقلَّت المبادرات الخيرية الطموحة، وأعقبها العجز والفتور والاتكالية، وأصبح ذلك الوثَّاب السبَّاق في الدعوة، هزيلاً كليلاً لا يقوىٰ علىٰ تحمل المسؤولية، ولا يعطي إلا فضول أوقاته محوطة بالمنّ والتفضل. ونظراً لما قد تفرضه الحياة الدراسية علىٰ الطلاب، أو العملية علىٰ المهاجرين، صار الواحد منهم يقضي الساعات الطوال في أبحاثه في معمله أو في متجره، دون أن يجد وقتاً في بعض الأحيان لرؤية الصالحين، حتىٰ أداء الصلاة جماعة لا يجد لها وقتاً إلا لماماً في اليوم بعد اليوم. ومن كان هذا شأنه، أتراه ينشط لدعوة أو يربي أمة؟!

ولا تقل لي - يا أخي - إنك لست معنياً بذلك، فالفتنة عظيمة، والنفوس ضعيفة، و«إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كلقب واحد، يصرفه حيث يشاء»[(١)]، و«مثل القلب كريشة بأرض فلاة، تقلبها الرياح ظهراً لبطن»[(٢)].

إنها - والله - آفة خطيرة تستحق أن يلتفت لها الدعاة والمربون في بلاد الغرب، فأين المحاضن التربوية الجادة التي تزكي النفوس، وتربي علىٰ الطاعات، وترقق القلوب، وتذكِّر الآخرة؟! وأين المجالس العامرة بالذكر وقراءة القرآن؟! وأين الرفقة الصالحة الناصحة التي تذكِّر الناسي، وتقوي العاجز، وتأخذ علىٰ يد الجاهل؟!

---

(١) أخرجه: مسلم، في كتاب القدر، باب تصريف الله - تعالىٰ - القلوب كيف يشاء، (٤/ ٢٠٤٥)، رقم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٨، ٤١٩)، وابن ماجه، في المقدمة، باب في القدر، (١/ ٨٨)، رقم (٨٨)، وصححه الأرناؤوط في شرح السنة، (١/ ١٦٤).

وأقولها ـ والذي نفسي بيده ـ صادقاً : بئست الشهادات العليا والتخصصات النادرة[١] التي ستملكها الصحوة الإسلامية ، إذا كان ذلك على حساب الدين والدعوة ، أو على حساب الجدية والفاعلية ؛ فما قيمة الأسماء اللامعة والألقاب الساطعة إذا كانت القلوب هشيماً متآكلاً لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً؟!

---

(١) ولا يظن ظان هنا أني أدعو إلى العزوف عن تلك المواقع الريادية ، أو التهاون في طلب الرزق والتجارة ، ولكن القصد التذكير بضرورة التوازن الذي يعطي كل ذي حق حقه .

إلى البيت العتيق

الشيخ الحاج عثمان دابو ـ رحمه الله ـ من جمهورية جامبيا في أقصىٰ الغرب الإفريقي، تجاوز الثمانين من عمره، زرته في منزله المتواضع في قريته الصغيرة قرب العاصمة بانجول، وحدثني عن رحلته الطويلة قبل خمسين عاماً إلىٰ البيت العتيق، ماشياً علىٰ قدميه مع أربعة من صحبه من بانجول إلىٰ مكة قاطعين قارة إفريقيا من غربها إلىٰ شرقها، لم يركبوا فيها إلا مرات قليلة متقطعة علىٰ بعض الدواب، إلىٰ أن وصلوا إلىٰ البحر الأحمر ثم ركبوا السفينة إلىٰ ميناء جدة.

رحلة مليئة بالعجائب والمواقف الغريبة التي لو دُوِّنت لكانت من أكثر كتب الرحلات إثارة وعبرة، استمرت الرحلة أكثر من سنتين، ينزلون أحياناً في بعض المدن للتكسب والراحة والتزود لنفقات الرحلة، ثم يواصلون المسير.

سألته: أليس حج البيت الحرام فرض علىٰ المستطيع، وأنتم في ذلك الوقت غير مستطيعين؟! قال: نعم، ولكننا تذاكرنا ذات يوم قصة إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما ذهب بأهله إلىٰ واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، فقال أحدنا: نحن الآن شباب أقوياء أصحاء، فما عذرنا عند الله ـ تعالىٰ ـ إن نحن قصَّرنا في المسير إلىٰ بيته المحرم، خاصة أننا نظن أن الأيام لن تزيدنا إلا ضعفاً، فلماذا التأخير؟! فهيَّجنا واستحثنا علىٰ السفر مستعينين بالله ـ تعالىٰ ـ.

خرج الخمسة من دُورهم، وليس معهم إلا قوتاً لا يكفيهم أكثر من أسبوع واحد فقط، والدافع الرئيس لذلك هو تحقيق أمر الله ـ تعالىٰ ـ لهم بحج بيته العتيق، وأصابهم في طريقهم من المشقة والضيق والكرب ما الله به عليم، فكم من ليلة باتوا فيها علىٰ الجوع حتىٰ كادوا أن يهلكوا؟! وكم من ليلة طاردتهم

السباع وفارقهم لذيذ المنام؟! وكم من ليلة أحاط بهم الخوف من كل مكان، فقطاع الطرق يعرضون للمسافرين في كل واد؟!

رُبّ ليلٍ بكيت منـــــه فلمَّا صرتُ في غيره بكيت عليه

قال الشيخ عثمان: لُدغت ذات ليلة في أثناء السفر، فأصابتني حمَّىٰ شديدة وألم عظيم أقعدني وأسهرني، وشممت رائحة الموت تسري في عروقي:

وإني لأرعى النجم حتى كأنني على كل نجم في السماء رقيب

فكان أصحابي يذهبون للعمل، وكنت أمكث تحت ظل شجرة إلىٰ أن يأتوا في آخر النهار، فكان الشيطان يوسوس في صدري: أَمَا كان الأَوْلىٰ أن تبقىٰ في أرضك؟! لماذا تكلف نفسك ما لا تطيق؟! ألم يفرض الله الحج علىٰ المستطيع فقط؟!

فثقلت نفسي وكدت أضعف، فلما جاء أصحابي نظر أحدهم إلي وجهي وسألني عن حالي، فالتفت عنه ومسحت دمعة غلبتني، فكأنه أحس ما بي! فقال: قم فتوضأ وصلي، ولن تجد إلا خيراً بإذن الله ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [**البقرة**: ٤٥، ٤٦]. فانشرح صدري، وأذهب الله عني الحزن، ولله الحمد.

كان الشوق للوصول إلىٰ الحرمين الشريفين يحدوهم في كل أحوالهم، ويخفف عليهم آلام السفر ومشاق الطريق ومخاطره، مات ثلاثة منهم في الطريق، كان آخرهم في عرض البحر، واللطيف أن وصيته لصاحبيه أن قال لهما: إذا وصلتما إلىٰ المسجد الحرام، فأخبرا الله ـ تعالىٰ ـ شوقي للقائه، واسألاه أن يجمعني ووالدتي في الجنة مع النبي ﷺ.

قال الشيخ عثمان: لما مات صاحبنا الثالث نزلني همٌّ شديد وغمٌّ عظيم، وكان ذلك أشد ما لاقيت في رحلتي، فقد كان أكثرنا صبراً وقوة، وخشيت أن أموت قبل أن أنعم بالوصول إلىٰ المسجد الحرام، فكنت أحسب الأيام والساعات علىٰ أحر من الجمر.

إذا برقت نحـــو الحجاز سحابة دعا الشوق مني برقها المتطامن

فلما وصلنا إلىٰ جدة مرضت مرضاً شديداً وخشيت أن أموت قبل أن أصل إلىٰ مكة المكرمة، فأوصيت صاحبي أنني إذا مت أن يكفنني في إحرامي، ويقربني قدر طاقته إلىٰ مكة، لعل الله أن يضاعف لي الأجر، ويتقبلني في الصالحين.

فيوشك أن يحول المـوت بيني وبين جـــوار بيتك والطـوافِ

فكم مـن سـائل لك رب رغـباً ورهباً بـين منتعـــل وحـــافـي

أتـاك الـراغبـــون إليك شـعثاً يسوقـــون المُقلَّدة الصَّوافـي(١)

مكثنا في جدة أياماً، ثم واصلنا طريقنا إلىٰ مكة، كانت أنفاسي تتسارع والبِشْر يملأ وجهي، والشوق يهزني ويشدني، إلىٰ أن وصلنا إلىٰ المسجد الحرام.

وسكت الشيخ قليلاً.. وأخذ يكفكف عبراته، وأقسم بالله ـ تعالىٰ ـ: أنه لم ير لذة في حياته كتلك اللذة التي عمرت قلبه لَمَّا رأىٰ الكعبة المشرفة! ثم قال: لما رأيت الكعبة سجدت لله شكراً، وأخذت أبكي من شدة الرهبة والهيبة كما يبكي الأطفال، فما أشرفه من بيت وأعظمه من مكان!

ثم تذكرت أصحابي الذين لم يتيسر لهم الوصول إلىٰ المسجد الحرام،

(١) من شعر ابن شبرمة، انظر: أخبار مكة، للفاكهي، (٢/ ٢٨٣).

فحمدت الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ نعمته وفضله علي، ثم سألته أن يكتب خطواتهم وألا يحرمهم الأجر، وأن يجمعنا بهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

خرجت من بيت الشيخ وأنا أردد قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٣٣]. إقبال جاد علىٰ الطاعة، إقبال لا يعرض له التكاسل أو التسويف، إقبال تتساقط تحته العراقيل والعقبات.. إقبال بهمّة صادقة وعزيمة عالية تنبع من قلب متعلق بمحبة الله والامتثال لأمره.

خرجت وأنا أردد قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾ [**الحج**: ٢٧].

ثم تأملت في حال كثير من المسلمين في هذا العصر ممن تحققت فيهم الشروط الشرعية الموجبة لحج بيت الله الحرام ومع ذلك يُسوِّفون ويتباطؤون عن الحج..! ألا فليتذكر أولئك قول النبي ﷺ: «من أراد الحج فليتعجل؛ فإنه قد يمرض المريض، وتضلّ الضالة، وتعرض الحاجة»(١).

---

(١) أخرجه: أحمد، (٣/ ٣٣٢)، رقم (١٨٣٣، ١٨٤٣)، وابن ماجه، في كتاب المناسك، رقم (٢٨٨٣)، وحسنه الألباني في الإرواء، رقم (٩٩٠)، والأرناؤوط في تخريجه لمسند الإمام أحمد.

من وحي الانتفاضة

منذ أن بدأ الصراع العربي الإسرائيلي في منتصف الأربعينيات الميلادية والهوية الحقيقية للصراع مغيَّبة عن الأمة؛ فمن الشعارات القومية التي تعالت صيحاتها من الخليج إلىٰ المحيط، والتي تمخضت أخيراً عن شعار الحرب العربي: (ارْمِ سلاحك وانسحب!). . وإلىٰ شعار: (سلام الشجعان!). لقد جهد هؤلاء العلمانيون في تزييف وعي الأمة، وخداعها بالمزايدات الإعلامية، ونصبوا لها تمثالاً من الوهم، وراحوا يُسبِّحون بحمده ويقدسون. . !

حتىٰ في أثناء النكبات والدماء التي ملأت أرض الإسراء في الانتفاضة الإسلامية الأخيرة، ما زالت الشعارات المجدبة المقفرة تقفز هنا وهناك، ترقص علىٰ جراح الأمة، وتزايد عليها، وكأني باليهود يخاطبوننا بقول حافظ إبراهيم:

قد ملأنا البر من أشلائهم فدعوهم يملؤوا الدنيا كلاما!

انتفاضة الأقصىٰ رسالة إلىٰ بني صهيون تذكِّرهم بأن جيل العزة والشموخ لم يمت بحمد الله؛ فقد ظهر النور من جديد وعرف الناس حقيقة المعركة، وأن أبناء جيل (عبد الناصر) و (ميشيل عفلق) و (أنطون سعادة) قد ولَّىٰ، وجاء جيل جديد تربىٰ علىٰ آيات الأنفال والتوبة وآل عمران، وراح يردد بكل ثقة:

ولست بخالع درعي وسيفي إلى أن يخلع الليلَ النهارُ!

انتفاضة الأقصىٰ رسالة إلىٰ المهزومين من دعاة التطبيع تخبرهم بأن النفوس الأبية الصادقة المتعطشة لنور الحرية قد عرفت طريقها، فرُبَّ حجر في كفِّ طفل مستضعف أنكىٰ في العدو من مؤتمرات تعقد، وقرارات تستنكر وتشجب. . ربّ حجر يُقذَف باسم الله ـ تعالىٰ ـ تحوطه تكبيرات الصادقين أبلغ في زعزعة

كيان العدو من أسلحة مهترئة تُرفَع باسم العروبة، فلا تلبث أن تسقط وتتهاوىٰ؛ فقد نخرها الصدأ وعلاها الوهن.

علمتنا انتفاضة الأقصىٰ أن العقيدة الإسلامية إذا رسخت في القلب أثمرت يقيناً راسخاً لا تهده الجبال، وعزيمة صادقة لا تردها الأعاصير، وإقبالاً سريعاً علىٰ الموت في سبيل الله لا يعوقه الفزع أو الجبن.

أنا من ربوع القدس طفل فارسٌ — أنا مؤمن بمبادئي أنا مسلمُ

سكت الرصاص فيا حجارة حدثي — أن العقيدة قوةٌ لا تُهزَمُ[1]

انتفاضة الأقصىٰ أظهرت عوار الاتفاقات والمعاهدات التي يتشدق بها أدعياء السلام، وذكّرت الأمة بقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٠٠].

انتفاضة الأقصىٰ بيَّنت حقيقة زعماء الوطنية الذين تتكشف سوءاتهم يوماً بعد يوم، ﴿**وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ**﴾ [المائدة: ١٣]، عرف الناس أن هذه الزعامات معاول هدم ترمي إلىٰ وأد الانتفاضة، أو تغيير مسارها، أو قطف ثمارها، ولهذا ليس غريباً أن يقول المفكر اليهودي (ياحوشفات هاركابي) في كتابه العقل العربي: «إن العرب هم أفضل أداة وأمضىٰ سلاحاً لقتل فكرة المقاومة!».

إن دهشتنا بلغت الذروة ونحن نسمع بعض من يُسمَّون بالنخب المثقفة ودعاة التطبيع يصرون علىٰ تجديد العهد علىٰ هذا المسار، علىٰ الرغم من الأشلاء المتناثرة علىٰ عتبات المسجد الأقصىٰ..!

ألا فليثق هؤلاء المهزومون أنهم لن يروا حقاً ينتصر، أو أرضاً تعاد، أو

(١) من شعر الدكتور عبد الرحمن العشماوي، ديوان: (شموخ في زمن الانكسار).

كـرامـة ترتفـع، ما داموا يتسترون وراء أقنعتهم الرقيعة، وأكاذيبهم الهزيلة. . !
وصدق الرافعي إذ يقول: «إذا أسندت الأمة مناصبها الكبيرة إلى صغار النفوس كبرت بها رذائلهم لا نفوسهم»[١].

دربٌ سلكناه والرحمن غايتنا ... ما مسنا قطُّ في لأْوائه ندمُ

نمضي ونمضي وإن طال الطريق بنا ... وسال دمعٌ على أطرافه ودمُ

يحلو العذابُ وعين الله تلحظنا ... ويعذُب الموت والتشريد والألمُ[٢]

(١) مجلة الرسالة، العدد (٨٤)، ذو القعدة ١٣٥٣هـ.
(٢) من شعر الأستاذ عصام العطار، انظر كتابه: (كلمات)، ص (٥٣٦، ٥٥٦).

رسالة على لسان مجاهد شيشاني

افعلوا ما شئتم أيها الروس . . فإنكم مهما قتلتم من الشيب والشباب، أو رمّلتم من النساء ويتّمتم من الأطفال، فاعلموا أن ذلك لن يضرنا ـ بإذن الله تعالىٰ ـ.

افعلوا ما شئتم . . وكيدوا ما شئتم، واستخدموا ما أردتم من الأسلحة الفتاكة، والقنابل المدمرة؛ فإن الله ـ تعالىٰ ـ معنا، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

افعلوا ما شئتم . . انتفشوا وتبختروا ولا تأخذكم بنا رأفة لا شفقة، لا ترحموا طفلاً رضيعاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة ضعيفة؛ فإن الله ـ تعالىٰ ـ لن يضيعنا.

عجباً لكم! ماذا تنقمون منا؟!

ألأننا عدنا لديننا واعتصمنا بكتابنا؟! ألأننا نهضنا من سُباتنا ورحنا نبحث عن هويتنا؟! ألأننا بدأنا نستنشق أنسام الحرية، ونزيل تراب الشيوعية من فوق رؤوسنا . .؟!

أرأيتم تبختركم وطغيانكم وجبروتكم وظلمكم، أتظنونه سوف يستمر؟! لا والله؛ فإن الله هو القوي العزيز، وإنَّا لنبصر فجر الخلاص بين راحتي هذه المحن ـ بإذن الله تعالىٰ ـ.

كم فسقتم وطغيتم وزلزلتم الأرض من تحت أقدامنا، وصبَّحتمونا بالقنابل المدمرة، ومسَّيتمونا بالصواريخ الحارقة . . كم . . وكم؟! ولكن:

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [**الملك** : ١٦ ، ١٧] .

انظروا إلىٰ فلول المهاجرين من الشيوخ والنساء والصبيان والعَجَزة كيف راحوا يهربون زرافات ووحداناً فراراً بأنفسهم وأعراضهم من جبروتكم وتسلطكم . . ؟! يا سبحان الله! ما أقسىٰ الذلة والمهانة! وما أصعب الشتات والتفرق! وما أشد ألم المرأة العفيفة التي انتُهِكَ عِرضها! وهل تعرفون أشد حرارة من دموع ذلك الشيخ الذي هدّه الألم وفجعته الكارثة . . ؟!

تأملوا في نظرات ذلك الصبي التائهة ، يتلفت هنا وهناك في تلك الأفواج المهاجرة لعله يجد أمه أو أباه أو أخته فيرتمي في أحضانهم . . ولكن . . هيهات هيهات . . !!

ها هو ذا شيخ طاعن في السن يضم رأسه بين راحتيه مقعياً حزيناً يتجرع ألم الحسرة والفراق فقد هُدِّم بيته ، وأُحرق زرعه ، ودُمِّرت أملاكه ، وتخطفت قنابل النابالم المحرقة زوجه وولده ، فانزوىٰ حزيناً يدفن مرارته وحزنه ، ويكفكف دمعه وعبرته ، وهكذا حال بقية الناس من حوله يُظلِّل وجوههم الفزع ، ويحوطها الهلع . . ولكن ما زادنا ذلك - إي والله - إلا قوة وثباتاً وإصراراً علىٰ طريق الجهاد في سبيل الله .

نعم صبَّ طغاتكم علينا أقسىٰ أنواع الظلم ، فأحاط بنا الألم من كل مكان ، نأرق ونحزن ، وتتصدع قلوبنا علىٰ أهلينا وأبنائنا ، لا تهنأ لنا عين بنوم ، ولا يرقأ لنا دمع ، نرىٰ أبناءنا ونساءنا وإخواننا يُتَخَطَّفون من حولنا ، وربما قدرنا علىٰ مواراتهم بالتراب ، وربما عجزنا عن ذلك . . ولكن واللهِ الذي لا إله إلا هو إن قلوبنا العامرة بالإيمان مطمئنة ساكنة يملؤها البِشْر والراحة والشوق للقاء الله ،

وتحدوها أطايب الجنة إلىٰ التسابق في التضحية وملاقاة الكفرة الملحدين، ولا نجد في نفوسنا قوة وثباتاً وشجاعة كما نجدها الآن، ولله الحمد والمنَّة.

أيها الروس: إننا نقاتلكم برجال ـ نحسبهم والله حسيبهم ـ يحرصون علىٰ الموت أكثر من حرصكم علىٰ الحياة، ارتفعت رؤوسهم الشمَّاء اعتزازاً بدينهم، وشمخت أفئدتهم الكريمة ثباتاً وصلابة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، استعانوا بربهم، وعضوا علىٰ دينهم بالنواجذ.

إننا نقاتلكم برجال يصدق فيهم قول الشاعر العربي:

عُبَّاد ليل إذا جنَّ الظلام بهم ... كم عابد دمعه في الخدِّ أجراه
وأُسْدُ غاب إذا نادى الجهاد بهم ... هبُّوا إلى الموت يستجدون رؤياه

أيها الروس: هَبُوا أنكم دمَّرتم ديارنا وقتلتم رجالنا؛ أتظنون أن الله مخلفُ وعَده رسُلَه..؟! افعلوا ما شئتم؛ فإننا نرىٰ بناءكم المترهل بدأ يتساقط ويتمزق ـ بإذن الله ـ، ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [**الحج**: ٤٠].

ماضٍ وأعرفُ ما دربي وما هدفي ... والموتُ يرقصُ لي في كل منعطَفِ
وما أبالي به حتى أحاذرَه ... فخشيةُ الموت عندي أبردُ الطُّرَفِ

أفغانستان.. أين الخلل؟

لقد كنا نتجنب الحديث عن أفغانستان في الآونة الأخيرة لأسباب عديدة، فالحديث عن أفغانستان يُدمي القلب ويجرح المشاعر، فأفغانستان البطولة والجهاد، وأفغانستان الشهداء والأفذاذ، أضحت أفغاناً أخرىٰ: الديار هي الديار، والجبال هي الجبال. . ولكن بعض الرجال غير الرجال الذين عرفناهم! ما الذي حدث حتىٰ يجري هذا التحول؟! ما الذي حدث حتىٰ نرىٰ طلاب الشهادة يبحثون عن مغنم آخر من مغانم الدنيا؟! ما الذي حدث حتىٰ تتحول تلك الأسود الضارية التي عهدنا عنها الشجاعة والقوة في دين الله ـ تعالىٰ ـ، ومجالدة الأعداء، إلىٰ أسود تتشاغل في التهارش والتآكل والتدافع فيما بينها؟!

إن تجربة الجهاد الأفغاني تجربة فريدة من نوعها في مسيرة الصحوة الإسلامية المعاصرة، وجديرة بالتدارس والبحث والتحليل، وليس من الحكمة، بل ولا من الشرع، أن نضع رؤوسنا في التراب، ونتغافل عن رصد هذه التجربة سلباً وإيجاباً. ونحسب أن تحليل هذه التجربة واستكشاف معالمها وأبعادها الفكرية والعلمية مطلب في غاية الأهمية، ليس للأفغان فقط، بل لعامة أبناء الصحوة الإسلامية، العاملين منهم في الجهاد أو في غيره، ولعل المقدمة تكون لفتح قنوات الحوار لدراسة القضية. وبادئ ذي بدء أرىٰ من الضروري التنبيه علىٰ المسائل التالية:

أولاً: أن الدافع لهذه المقالة هو المحبة الصادقة لإخواننا المجاهدين، والحرص الكبير علىٰ سلامة الجهاد، فالتناصح بمحبة وإشفاق هو العلامة البينة لصدق

(*) نشرت هذه المقالة في عام ١٤١٨هـ، والصراع محتدم بين بعض الفصائل الأفغانية، وقد رأيت نشرها من أجل الاستفادة من تلك التجربة.

المحبة، قال جرير بن عبد الله البجلي: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»[١]. ولا شك عندي في أن البخل في النصيحة والسكوت عن الأخطاء من الخيانة التي لا ترضي الله ـ عز وجل ـ، وفي ذلك دلالة على ضعف المحبة والولاء.

ثانياً: ربما يرى بعض إخواننا قسوة في الكلمات، أو شدة في بعض العبارات، وأنا أعتذر عن ذلك سلفاً، وإن كنت حرصت حرصاً شديداً على تلمس ألطف العبارات، لعلها تلامس القلوب، وتلقى قبولاً حسناً إن شاء الله، وإن ندّ مني شيء لم أتداركه فأرجو الله ـ تعالى ـ أن يغفر لي، ويتجاوز عني وأؤكد لإخواننا أنني ما أردت إلا الخير فليحسنوا الظن، وليلتمسوا العذر، وهم أهل لذلك إن شاء الله.

ثالثاً: أن خطابي في هذه المقالة خطاب عام لا أخص به فصيلاً بعينه، ولا أقصد مخاطبة حزب محدد، فليس لنا ـ ولله الحمد ـ عداء مع أحد، ولا أحب أن يُحمَّل كلامي ما لا يحتمل، أو يظن أن كلامي من باب الهمز واللمز وتتبع العورات، فو الله الذي لا إله إلا هو إنني أنفر من ذلك نفرة شديدة، فقدوتنا رسول الله ﷺ الذي كان يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»[٢].

رابعاً: أنني لا أدعي الكمال والسلامة من المعايب، ففيَّ من النقص والتقصير ما الله به عليم، وأترفع عن التعالي والتعاظم على إخواننا، فليس ذلك من شيم المؤمنين، وإن كنت تجرأت على نصح إخواني فلمحبتي لهم، وأرجو الله أن يغفر لنا خطايانا.

---

(١) أخرجه: البخاري في عدة مواضع، منها: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة، (١/ ١٣٧)، رقم (٥٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، (١/ ٧٥)، رقم (٥٦).

(٢) أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، (٤/ ٢٥٠)، رقم (٤٧٨٨)، وحسنه الأرناؤوط في تخريج شرح السنة، (١٣/ ١٤٣).

وفيما يلي محاولة مبدئية لتلمس مواضع الخلل، وجوانب التقصير في البنية الأفغانية:

أولاً: الخلل العقدي:

الشعب الأفغاني على الرغم من العاطفة الصادقة التي يحملها، والمحبة الظاهرة لدين الله - تعالى - شعب - كعامة الشعوب الإسلامية - تغلب عليه الجهالة، وقلة الفهم والوعي. ولهذا انتشرت الخرافة والبدعة، وقلّ العلم، وتوارث الناس ألواناً من الانحرافات والضلالات، وهُجرت السنَّة النبوية عند كثير منهم، وزاد في ترسيخ ذلك ثلة من الشيوخ الذين تصدروا قيادة بعض الجمعيات والمنظمات الإسلامية، ممن قلَّت بضاعتهم العلمية وتربوا في محاضن الصوفية، وأخذوا يدعون الناس إلى موروثاتهم البدعية، ويزينون لهم بعض اعتقاداتهم الشركية! ولما انتشرت الصحوة الإسلامية وبدأ الجهاد لمقاومة الغزو الشيوعي، انشغل الناس كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم، في تجييش الناس وشحذ هممهم للقتال والفداء والتضحية، وكان الهم الأكبر الذي يشغل الأحزاب الإسلامية فتح معسكرات التدريب والإعداد للقتال، وغفل أكثرهم غفلة شديدة عن التعليم وتصحيح العقائد. ولما تنبه بعض المخلصين لهذا الشرخ العظيم، ودعوا إلى الاهتمام بالعقيدة وتعليم الناس المنهج الصحيح، صاح بهم الجهلة من أقطارها ورموهم بتهمة الوهابية، وأحسنهم حالاً من قال لهم: أنتم تفرقون الصفوف وتشتتون وحدة الجماعة، وتثيرون الفتنة.. و... و...!

أيها الأفغان: إن نشر العلم والعقيدة الصحيحة لا يتعارضان على الإطلاق مع الدعوة إلى الجهاد، وتربية الناس على البذل والتضحية والفداء، وتصحيح العقائد ليس تثبيطاً للهمم، وليس إشغالاً أو استهلاكاً للعزائم، بل إن العقيدة الصحيحة هي الدافعة والمحركة لمزيد من العطاء والتضحية، وكل دعوات الأنبياء

ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنما بدأت بتصحيح العقائد، وبناء المنهج الصحيح الذي يرسخ الإيمان في النفوس. ولا ننكر أن بعض من تبنىٰ الاهتمام بتصحيح العقائد في أفغانستان لم يحسن بيان ذلك، وربما اتخذ أسلوباً هو إلىٰ التنفير أقرب منه إلىٰ التأليف. ولكن هذا ليس مسوِّغاً علىٰ الإطلاق لرد المنهج الصحيح، وإذا جاز هذا الجهل في حق العامة، فإن الشيوخ يجب عليهم أن يزنوا الحق بموازينه العلمية، ويقبلوا الحق من كل من قاله كائناً من كان، فالحق أحق أن يتبع.

إننا لم ندع إلىٰ إيقاف الجهاد لأن بعض العامة كانوا يعلقون التمائم أو يمارسون بعض البدع القولية أو العملية، ولكننا كنا نطالب مراراً وتكراراً، بضرورة التعليم، ونشر السنَّة والتحذير من البدعة بالحجة والبرهان الشرعي الصحيح. ويجب أن تتسع الصدور لمثل هذا العمل الجليل ـ وإن خالف العوائد والمذاهب ـ فهو المنطلق والأساس. وتكثير الصفوف، وتجميع الناس علىٰ غير هدىٰ ليس من علامات القوة، أو من عُدد النصر، والمجاهدون لا يخفىٰ عليهم قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [**البقرة**: ٢٤٩].

وفي الوقت نفسه لا نرىٰ أبداً جواز تعاون المجاهدين مع قوم انتشر فيهم الشرك الأكبر الصراح. فيكف يتنزل نصر الله ـ تعالىٰ ـ ومن بيننا من يطوف بالقبور مستغيثاً بها، أو يذبح لغير الله، أو يدعو غير الله..؟! إن الأمر جد خطير، والطريق واضحة بينة، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [**يوسف**: ١٠٨].

إن العناية بأمر التوحيد من أولىٰ الأولويات الواجبة في إعداد العدة، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يُقصِّر المجاهدون أو غيرهم في رعاية هذا الأمر والحرص عليه، وقد كانت هذه وصية النبي ﷺ لمعاذ لـمَّا بعثه إلىٰ اليمن، حيث قال له: «ادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؛ فإن هم

أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»(١) .

ثانياً: الخلل المنهجي:

الوضوح المنهجي والدعوي مطلب أساس لسلامة المسيرة الجهادية والدعوية، ومعرفة أصول الائتلاف والاختلاف، وقواعد الولاء والبراء، هي المنطلق الرئيس في اتخاذ المواقف العلمية الصحيحة. كما أن تقدير المصالح والمفاسد والموازنة بينهما، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين؛ يحتاج إلى فقه دقيق بالنصوص الشرعية ومقاصدها، ووعي عميق بالملابسات العلمية والفكرية المحيطة بها، ومن ثم يتم التعامل مع المتغيرات السياسية والفكرية المختلفة بموازين شرعية محكمة واضحة المعالم، بعيداً عن المواقف العاطفية والاجتهادات الارتجالية. ومشكلة أكثر الأحزاب والجمعيات الأفغانية هو غياب تلك الرؤية المنهجية الشرعية الصحيحة، وضعف البضاعة العلمية، وظهرت علامات ذلك بارزة جلية في التحالفات المشبوهة مع بعض الأحزاب والاتجاهات الصوفية المفرطة في خرافيتها، أو بعض الأحزاب الباطنية التي تعلن توجهها الرافضي، بل العجيب أن بعض الأحزاب لم ير مانعاً من عقد التحالفات المتكررة مع بعض الأحزاب الأفغانية الشيوعية، أو الأنظمة العلمانية المجاورة، لمصالح سياسية متوهمة، أو بسبب ضغوطات مالية وعسكرية معينة. ولا يخفى على القادة الأفغان أن بعض الزعماء كان لديه اتصالات متكررة مع أمريكا وحلفائها، وقد أغضب ذلك بعض القادة حيناً من الوقت، ومع ذلك استمر التعاون معهم، بل

(١) أخرجه: البخاري في عدة مواضع، منها: في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، (٣/ ٢٦١)، رقم (١٣٩٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، (١/ ٥٠)، رقم (١٩).

والانضواء تحت قيادتهم أحياناً، مع أن كثيراً من العلماء والمفكرين حذرهم من ذلك مراراً!

إن ثمة نتائج محزنة جداً بدأت منذ الأيام الأولىٰ للجهاد الأفغاني، فكم عانىٰ بعض المجاهدين من التخبط والاضطراب! وكم عصفت ببعضهم المحن والفتن! وكم رأينا من اختلال الموازين وتقلب المواقف والآراء، والمساومة، بل والتنازل عن بعض المبادئ والمسلَّمات الشرعية!

إن الوحدة الإسلامية، واجتماع الكلمة تحت راية واحدة، مطلب أساس متفق عليه إن شاء الله. ولكن الله ما أمرنا أن نجتمع مع كل أحد؛ فهل صحيح أن تبنىٰ الوحدة علىٰ أسس علمية وفكرية هشة يسري فيها الأذىٰ من أصولها؟! لقد أضحت بعض الأحزاب المنحرفة عقدياً معاول هدم وتدمير، تخلخل الصفوف، وتبعدها عن الصراط المستقيم، وما لم تتخذ مواقف واضحة وصريحة من هذه الأحزاب؛ فإن الداء سوف يستفحل، وزاوية الانحرف سوف تزداد باطراد مستمر.. نسأل الله لإخواننا السلامة من ذلك!

ولما كان المجاهدون منشغلين بمواجهة الشيوعيين، لم يتضح ذلك الخلل المنهجي بجلاء إلا عند الصفوة الواعية، وإن تكلم أحدهم ناصحاً بصدق وإخلاص اتهموه بالتخذيل والتثبيط والإرجاف! فانفض عنه الناس وتفرقوا، فانتشر الداء انتشار النار في الهشيم، وأخذ ينخر في الصفوف الخلفية خاصة نخراً شديداً، وإن بان شيء من إفرازات ذلك المرض عند العامة أو بعض الخاصة، كانوا يتناسونه ويتشاغلون عنه بمجاهدة الشيوعيين، أما وقد انهزم الشيوعيون، وفتحت كابل، بان ذلك الخلل للقاصي والداني، وانكشفت الصورة علىٰ حقيقتها، وأصبح الناس في هرج ومرج، نسأل الله ـ تعالىٰ ـ السلامة من كل إثم.

أحبابنا الأفغان: نحن نعلم أن المؤامرات على المجاهدين كثيرة، ونعلم أن الضغوط تحيط بهم من كل مكان، ولا يخفى علينا كثرة المتربصين الذين يجلبون بخيلهم ورجلهم لقطف ثمرة الجهاد، ولكن ألا يقوى الذين صبروا على مواجهة الزحف الشيوعي الأحمر على مواجهة بقية الأعداء والدخلاء من بينهم؟! إن الطريق جد صعبة والمصاعب كثيرة، ولن يقوى على تحمل ذلك إلا الأئمة الأقوياء بإيمانهم. ونرجو أن يكون إخواننا عند حسن الظن بهم.

إن طبيعة هذا الدين جلية ـ ولله الحمد ـ وقد جاء تأصيلها في الأيام الأولى لنزول القرآن الكريم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [**الكافرون**: ١ - ٦]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ [**الإسراء**: ٧٣ - ٧٥].

ثالثاً: الخلل التربوي:

للتربية الجادة أثر كبير في بناء الرجال، فهي الأساس في إعداد النفوس وتزكيتها وتطهيرها. والتضحية بالنفس أو المال أو الأهل والولد، منزلة عليّة سامقة، تتطلب قلوباً مؤمنة، قوية بالطاعات، رسخ فيها اليقين، واطمأنت بذكر الله ـ تعالى ـ والإخبات إليه، ولهذا أمر النبي ﷺ أصحابه بقيام الليل والذكر وتلاوة القرآن، لكي تستعد النفوس لتحمل الأعباء العظيمة التي ستكلف بها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً**﴾ [**المزمل**: ١ - ٣]. ولهذا لم يأمر النبي ﷺ أصحابه بالقتال إلا بعد سنين متتابعة من الإعداد والبناء والتربية.

فإذا تقرر ذلك، دعونا ننظر في الواقع الأفغاني، وبادئ ذي بدء نحن لا نشك في بسالة الأفغان وشجاعتهم، ونكبر فيهم الروح المتقدة قوة وحماساً، فقد علمونا أروع الأمثلة في الصبر والتضحية. ولكن عندما بدأ الجهاد رفع الناس جميعهم - من مختلف شرائح المجتمع - راية الجهاد، والتحقوا بالصفوف القتالية مباشرة، وقادة الجهاد لا يخفىٰ عليهم أن كثيراً من هؤلاء القوم قد لا يحسن حتىٰ أداء الصلاة وقراءة القرآن، وقد لا يسلم من بعض كبائر الذنوب. ونؤكد هنا علىٰ أننا لا نطالب بالعصمة المطلقة من الذنوب، ولا نطمح بأن يكون الجهاد في أفغانستان عملاً نخبوياً؛ ولكن كنا نتمنىٰ الاهتمام الأكبر بإعداد المحاضن التربوية التي تزكي النفوس وتطهر القلوب وترعىٰ رجالات الأمة رعاية إيمانية كريمة، والأمة التي يراد منها تغيير مسار التاريخ ومواجهة قوىٰ الشرق والغرب، ومقارعة الظالمين، يجب أن تكون مؤهلة تأهيلاً يليق بتبعات هذه الأمانة العظيمة، قال الله - تعالىٰ -: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [**السجدة**: ٢٤]، قال الإمام الثوري: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

رابعاً: الخلل التنظيمي:

بدأ الجهاد الأفغاني والناس أحزاب متفرقون، كل حزب له قيادته الخاصة، ثم توسع الجهاد وتكاثر أنصاره ومؤيدوه، فازدادت الأحزاب تفرقاً، وازداد تنافسها واختلافها، بل تنابذها وتهارشها، ولما جاء المجاهدون العرب وغيرهم إلىٰ إخوانهم الأفغان، جاؤوا يحملون اختلافاتهم وانتماءاتهم الحزبية والفكرية، وبعض هؤلاء الأنصار كان تقياً ورعاً واعياً، وبعضهم كان دون ذلك ورعاً وفهماً! وزاد في ترسيخ ذلك التفرق والتعصب الحزبي أن بعض المتبرعين لتمويل الجهاد كانوا يعطون هذا الحزب ويتركون الآخر، ويقدمون مساعدات مشروطة ترسِّخ مبدأ التفرق والتحزب!

ولما أحس المخلصون بخطورة هذا التصدع والتفكك الداخلي في جسم الجهاد الأفغاني، وأثره الخطير في الفشل وذهاب الريح، حاولوا مراراً وتكراراً تقريب وجهات النظر وتوحيد الصفوف، وكانت تتم في بعض الأحيان تحالفات شكلية هشة سرعان ما تتصدع وتتهاوىٰ عند أي اختلاف ميداني؛ لأنها مبنية أصلاً علىٰ مبدأ «عدم الثقة»!، بل قد يصل الحال أحياناً إلىٰ تصفية الخلافات عسكرياً، فيُقتل من يقتل، ويجرح من يجرح، ويظهر مبدأ استعراض القوة والغلبة عند بعضهم، حتىٰ أصبحت الساحة الأفغانية في يوم من الأيام ساحة لمختلف ألوان الصراعات الحزبية، تحوي شتىٰ أمراض الجماعات الإسلامية في مختلف أنحاء الأرض، ومع ذلك كله كان الأمر مستتراً نسبياً؛ لأن الأحزاب جميعها منشغلة بالأعمال العسكرية الميدانية، ويهددها عدو مشترك. ولكن عندما سقطت الحكومة الشيوعية وتهاوت حصون كابل، تفرغت الأحزاب بعضهم لبعض، وعادت لتصفية حساباتها، فكشرت الخلافات عن أنيابها، وتحولت بعض الحملان الوديعة إلىٰ أسود كاسرة، وظهر الولاء الحزبي والقبلي فوق كل اعتبار، فالراية الحزبية والقبلية عند بعضهم تعلو علىٰ كل الرايات، وأصبح بعض الناس يدينون بالولاء المطلق لشيخ القبيلة، ثم رأينا بعض قادة الأحزاب والجمعيات الإسلامية ـ مع الأسف الشديد ـ يستثيرون حمية أنصارهم، ويستدعونهم باسم القبيلة، ويتناصرون باسمها، حتىٰ هان علىٰ بعض المسلمين أن يشهر السلاح علىٰ أخيه المسلم، بل أن يتجرأ علىٰ قتله والعياذ بالله!

إن التعصب الحزبي الأعمىٰ، وعقد اللواء باسم الحزب والقبيلة، من الآفات الخطيرة التي تمزق وحدة الأمة، وتشتت صفوف الجماعة، وتشغلها بالقيل والقال وتوافه الأمور وسفاسفها.

ولا شك في أن تمكن هذه الأدواء في بعض صفوف المجاهدين أدىٰ إلىٰ

إنهاكهم وتصدع أركانهم، والرزية كل الرزية أن تنتكس راية الجهاد، وتضل طريقها، وتُهدر ثمرات ذلك الجهاد المبارك الذي ظل يستنهض همم المجاهدين، ورجالات الأمة في أنحاء المعمورة، وقد قال رسول الله ﷺ: «من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدِّيَ، فهو يُنتزع بذنبه»[١].

وأذكِّر - والذكرى تنفع المؤمنين - بقوله ﷺ: «من قُتل تحت راية عِمِّيَّة، يدعو عصبية، أو ينصر عصبية؛ فَقِتْلَةٌ جاهلية»[٢].

---

(١) أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، باب في العصبية، (٥/ ٣٣١)، رقم (٥١١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (٦٤٥١).

(٢) أخرجه: مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، (٣/ ١٤٧٨)، رقم (١٨٥٠).

الكنز المفقود

أكثر من سبعين عاماً عاشها المسلمون في روسيا وآسيا الوسطى تحت أسوار القفص الحديدي الشيوعي . . أكثر من سبعين عاماً من القهر والاستبداد والتسلط . . أكثر من سبعين عاماً صبَّ فيها الشيوعيون كل ألوان الطغيان والقتل . . أكثر من سبعين عاماً مُحي فيها التاريخ بالقوة، ومُسخت الهوية، وأصبح مجرَّد الانتساب إلى الإسلام جريمة عظيمة ليس لها عقوبة إلا الإعدام .

وفجأة يتحطم ذلك القفص، وتتمزق أجزاء تلك الإمبراطورية الحمراء، وتنطلق كل الأعراق والأجناس في البحث عن هويتهم المنتزعة، وتاريخهم المفقود، حتى الروس أنفسهم عادوا إلى الاعتزاز بالقيصرية الروسية، وراحوا يُشيِّدون الكنائس الأرثوذكسية، ويُظهرون معالم الصليب . وانطلق المسلمون ـ من حيث الجملة ـ مع من انطلق في تلك العودة، وعادت المآذن ـ بحمد الله ـ تعلو من جديد، وسمع الناس أصوات التكبير تعطِّر الأجواء .

عاد الناس بعاطفتهم المتشوقة إلى الإسلام، يحدوهم الحنين والتطلع إلى ماضٍ عريق عاشته أمة الإسلام في ديارهم .

ذهب أحد الدعاة إلى ريف من أرياف المسلمين هناك، وأعطى نسخة من القرآن الكريم لعجوز مسلمة ربما جاوزت الستين عاماً، ففتحت عينيها مستغربة، تملؤها الدهشة، ثم جالت في نفسها ألوان من الأفكار والمشاعر، وفجأة أجهشت بالبكاء، وأخذت تقبِّل المصحف وتقلِّبه على وجهها، ثم راحت تجري تنادي أبناءها، وتتحدث معهم بلهفة، وكأنها تعرِّفهم بكنز مفقود طالما انتظروا الحصول عليه، ثم التفتت إلى الداعية وقالت له : لقد كان أبي

يُحدثنا أن جدَّه كان يملك نسخة من القرآن الكريم يتلو فيها على أبنائه . . !!

وبعد أحاديث عابرة أراد صاحبنا أن ينصرف مع رفاقه، فأبت عليهم، وألحَّت عليهم إلحاحاً شديداً إلاَّ دخلوا بيتها؛ فقَبِلوا دعوتها تطييباً لخاطرها، ثم قالت على استحياء: هل يتيسّر لكم أن تعلِّموا أبنائي سورة الفاتحة، أما أنا فقد ذهب عمري . . ؟! ولمَّا أرادوا الانصراف قالت لهم: ليس عندي ما أجازيكم به، ولكن أرجو أن تقبلوا هذا - وأخرجت عملة روسية (الروبل) - عرفاناً بجميلكم ووفاءً بحقكم . . !!

إنها عاطفة بدأت تدبُّ فيها الحياة من جديد، لكنها في أغلب الأحوال عاطفة غير موجهة التوجيه الصحيح، وغير مستثمرة الاستثمار الأمثل؛ فالجهل يضرب بأطنابه في عقول الناس، ولهذا أصبح الانتماء إلى الإسلام عند كثير من الناس جزءاً من الانتماء العرقي والتاريخي، وأدى ذلك إلى انسياق عامتهم وراء حملات التغريب والعلمنة التي قادتها أمريكا وأوروبا التي افتتن فيها الناس جميعاً بمختلف أديانهم وأعراقهم، بعد أن تخلصوا من جحيم الكبت والذلة. لقد حرص الغرب على تصدير الحضارة الأخلاقية والاجتماعية الغربية إلى روسيا والجمهوريات المختلفة، وعدَّها سوقاً استهلاكية يسهل غزوها والتأثير عليها.

بل إن حملات التنصير الكاثوليكية والبروتستانتية لما وجدت الصدود والاستنكار من الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا الاتحادية وغيرها، وجَّهت حملاتها التنصيرية إلى مناطق المسلمين وبخاصة كازاخستان وأوزبكستان وطاجكستان، ووجدت فيها أرضاً خصبة يسهل غزوها والتأثير عليها.

إنَّ المسلمين في روسيا الاتحادية وآسيا الوسطى يمثلون عمقاً استراتيجياً في

غاية الأهمية، كما يمثلون ثقلاً بشرياً لا يمكن الاستهانة به على الإطلاق، ولكن مع الأسف الشديد كان الملتفت الأكبر لهم من المسلمين: تركيا العلمانية، وإيران..!! فهل ندرك أهمية تلك المناطق.. أو نطويها كما طويت مناطق أخرى من مناطق المسلمين..؟!

وهل نسعى بجد إلى إعادة الهوية الضائعة إلى المسلمين..؟! وهل نستغل تلك العاطفة المتقدة في نفوسهم، أو ننساهم كما نسينا غيرهم..؟!

براءة اختراع

من مجاهل الأزقة المهجورة (العدامة) ثم (الشميسي) و (الكراديب) إلىٰ أعشاش (شقة الحرية).. توثيق وتأريخ لأنشطة رجالات الأحزاب القومية والبعثية والثورية، فيها جرأة فكرية واضحة ـ ممزوجة بجرأة غير أخلاقية مقززة ومفتعلة ـ وكأنها تقول: كانت تلك هي البذور الأولىٰ للرفاق المناضلين، وها هي ذي ثمراتها.

تمثل هذه الروايات حالة التمرد والغليان الفكري من الخمسينيات إلىٰ السبعينيات الميلادية التي كانت تضطرب بها الأمة العربية، ولكنها خرجت في شكل تمرد علىٰ القيم والأخلاق والثوابت الفكرية والجذور التاريخية، ثم انتهت إلىٰ حالة التشتت وضياع الهوية الفكرية التي كانت تسيطر علىٰ الشباب العربي في تلك الفترة. وكان من إفرازات ذلك: الالتفاف حول الشعارات الثورية، والجري اللاهث وراءها ظناً منهم أن فيها الخلاص والمخرج من المأزق الذي تعيشه البلاد العربية. كانت الشعوب العربية تردد بكل غفلة: (من الخليج الثائر.. إلىٰ المحيط الهادر.. لبيك عبد الناصر)! وكانت الأكف لا تفتر عن التصفيق والتسبيح بحمد القيادات الثورية.

ظلّت تلك الشعوب تسْبح في خيالات من الوهم الزائف، وكأنها قد ملكت زمام الأمور، وأصبحت قاب قوسين أو أدنىٰ من النصر! وإذا بها تستفيق من غفلتها بعد أن دُكّ الطيران المصري وهو علىٰ أرضه.. وظهرت الفضيحة المدوِّية التي لم تغطّ عليها إلا بيانات (صوت العرب) التي تبشر بالنصر المؤزر، وإخفاق الخطط الإمبريالية؛ فالقائد (البطل) ما زال حيّاً..!

تربىٰ شباب (الحرية) و(العدامة) علىٰ مبادئ الرفاق: ماركس، ولينين، وجيفارا، ورددوا شعارات ميشيل عفلق، وياسين الحافظ، وتقلبوا في أحضان القومية والماركسية والبعث الاشتراكي. وبغضّ النظر عن الرمزية في تلك القصص ومدىٰ الصدق في أحداثها وأسمائها، فإن فيها دلالة واضحة علىٰ الخلفية الفكرية لتلك الرموز الفكرية.

ودعُونا نسأل هنا سؤالاً عابراً[1]!: ها نحن نصل إلىٰ نهاية التسعينيات الميلادية، وبعد أن خبا صوت تلك الشعارات الثورية الزائفة؛ فما الذي جناه العرب من تلك الشعارات والأحزاب (النضالية)؟! وما الذي استطاع أن ينجزه هؤلاء الرفاق بعد مسيرة طويلة من التمرد والسخرية من (مخلفات الماضي وتقاليده (البالية)؟!

إنها حالة من التيه والتطلع إلىٰ السراب في صحراء لاهبة محرقة لا خضرة فيها ولا ماء.. حالة من التخبط والتردي جرّت الأمة من مأزق إلىٰ مأزقٍ، وكانت النهاية في (سلام الشجعان!)، ثم نرىٰ الرؤوس ـ ثانية ـ تستدير من الشرق الأحمر حيث يسقط المنجل والمطرقة، إلىٰ الغرب الأبيض حيث يرتفع تمثال الحرية..!!

إن تزييف الحقائق، وتغيير اللبوس، وإجادة فنون التقلب والتشكل، لن يغير من الحقائق شيئاً علىٰ الإطلاق، فهل يعي هؤلاء مقدار الدمار والخزي الذي جَنَوه علىٰ هذه الأمة؟.. أو أن مقتضيات المرحلة تستدعي اكتشاف شعار جديد لينال أصحابه براءة اختراع نضالية..؟!!

---

(١) أحد أبطال قصص العدامة والشميسي والكراديب اسمه: (هشام العابر)!

شاعر الخليفة .. والصحافة العربية!

تهتم وسائل الإعلام العالمية بالتجديد والتنويع لجذب القراء وتشويقهم، أما الأبواق العربية فقد أخذت بطرف من هذه الفكرة سبيلاً للتغير والتلون؛ فما يكون صحيحاً وفتحاً كبيراً في هذا اليوم، يكون باطلاً وعملاً لا قيمة له في الغد، فلا توجد ثوابت منطقية أو إعلامية، فكل شيء متحول ومتجدد إلا (الرغبات السياسية) . . !

الكاتب يُعدّ قوميّاً في هذه السنة، وطنيّاً في السنة الأخرىٰ، ثوريّاً في الثالثة . . وصل بعض هؤلاء الكتاب إلىٰ قمة الإبداع في التزوير وقلب الحقائق، فالكاتب المتمكن هو الأقدر علىٰ الكذب والتلفيق، وتسمية الأمور بغير مسمياتها . . !!

حرب ١٩٦٧م ليست هزيمة، بل هي نكسة . . بل انتصار عظيم؛ لأن الزعيم العربي الملهم! ما زال علىٰ عرشه، عاضّاً عليه بالنواجذ . . ! .

(بيريز) الأمس مجرم سفاك إرهابي . . أما (بيريز) اليوم فهو حمل وديع وطفل بريء محب للحرية والسلام . . !

(إسرائيل) الدولة الصهيونية المحتلة المغتصبة . . أصبحت بين عشية وضحاها دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة، لها ـ كما لغيرها! ـ الحق في أن تعيش بسلام مع جاراتها الصديقات . . !

الثابت الوحيد الذي لا يتغير بتغير الأقنعة والشعارات، ولا يتبدل بتبدل المصالح والتقلبات النفعية، هو الهجوم علىٰ الإسلاميين . . المتطرفين . . الإرهابيين . . (!!)

ولعلّ بعض الكتبة في صحافتنا العربية من أحفاد ذلك الشاعر الفاطمي الذي رأىٰ الزلزال يهز مصر، فتتساقط الضحايا، وتهدم الممتلكات، ويعم الخوف والهلع. . فتجود قريحته الإعلامية بأبيات خاطب فيها الخليفة. . قال فيها:

ما زُلزلتْ مصر من خَطْبٍ ألمّ بها لكنَّها رَقَصَت من عَدْلِكُم طَرَبَا!

وصدق الصادق المصدوق ﷺ: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت» (١).

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، (١٠ / ٥٢٣)، رقم (٦١٢٠).

درس لايُنسى..!

كنت في رحلة إلىٰ مدينة (وجير) في الشمال الشرقي لجمهورية كينيا، وبعد تجوال طويل بين القرىٰ المختلفة، توقفت بجوار مجموعة من الصبيان تحلقوا لقراءة القرآن الكريم بين يدي شيخهم تحت ظل شجرة، هرباً من لهيب الشمس المحرق، رأيتهم يكتبون القرآن الكريم بالفحم علىٰ ألواح خشبية بطريقة بدائية، ويرددون مقطعاً من سورة: ﴿ قٓ ﴾ بصوت متخشّع يأسر القلوب.

ورأيتُ شيخهم يُمسك نسخة قديمة ممزقة الأوراق من كتاب: (الأصول الثلاثة) باللغة السواحلية، ذكر أنه استعارها من صاحب له، فسألته عن طلابه وحرصهم علىٰ الدرس والحفظ؟! فطأطأ رأسه قليلاً، ثم تنهد بعمق.. وقال: جاءت إلينا إحدىٰ الإرساليات الكنسية العريقة منذ أكثر من عشرين عاماً، وها هي ذي الآن تتعاهد أبناءنا بالقصص المصورة الموجهة بلغتهم المحلية، فتشدّهم بألوانها البراقة وأساليبها الجذابة، كما توزع الإنجيل والكتب والمجلات التنصيرية، وتقيم الاحتفالات والبرامج الشبابية المتعددة لاحتواء المسلمين وفتنتهم..

ثم نظر إليّ نظرة ملؤها الأسىٰ والعتب، وقال لي بحياء: أين المسلمون؟! حتىٰ أنت تصافح الصبية بحرج حتىٰ لا تتسخ يدك.! ولكن دع النصارىٰ يفعلون ما يريدون فنحن علىٰ ثقة من ديننا، حتىٰ ولو كنا تحت شجرة ولم نجد إلا ألواح الخشب..!!

غادرت المنطقة وقد اغرورقت عيناي بالدموع، وأنا أحمد الله ـ تعالىٰ ـ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه الذي حفظ كتابه العزيز وحفظ دينه الكريم، فعلىٰ الرغم من

الفقر والمرض والجهل، وعلى الرغم من العزلة والانقطاع، والبعد في تلك المناطق النائية والأدغال الوعرة؛ تجد هؤلاء الصبية يتحلقون لتلاوة كتاب الله - تعالى - بكل اطمئنان وثقة.

لقد تعلمتُ في التربية درساً لا يُنسى.. فالبذل لهذا الدين والتضحية من أجله ليست شعاراً يُرفع أو دعوى يُتشدق بها، وإنما هي وليدة عقيدة راسخة في القلب تثمر الصدق والفاعلية.

لقد تعلمتُ في التربية درساً لا يُنسى.. فكم هي الأموال التي ننفقها في الإسراف والبذخ والتوسع في المباحات، فضلاً عن الملاهي والمحرمات..؟!

ولم أعجب من جهود المنصرين وأنا أقرأ قول الله - تعالى -: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ [**الأنفال**: ٣٦].

ولكنني عجبت أشد العجب من تقصيرنا وتفريطنا - نحن المسلمين - فكتاب الله - عز وجل - لم نستطع إيصاله لعموم المسلمين، فضلاً عن ترجمة معانيه وتفسيره.. فضلاً عن تقريب السنَّة النبوية وترجمتها، وتيسير العقيدة الصحيحة المبرأة من الشركيات والبدع..!!

ما أعظمها من أمانة..!

وما أجلها من مسؤولية..!

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة